الفصل الخامس

الانفعالية الأخلاقية

الفصل الخامس

الانفعالية الأخلاقية

أولاً: من الحدسية إلى الانفعالية

يدور الموضوع بوجه عام حول تحولات فكرية أخلاقية فى فلسفة برتراند رسل القيمية، وهو التحول من النظرية الحدسية وتبنى النظرية الانفعالية(*) ثم الطبيعية الأخلاقية، بيد أن التحول من الحدسية الأخلاقية لم يكن ناتجًا عن فراغ خلقى، فالأخلاق السكونية التى كتبها «سانتيانا» ناقدًا فيها «رسل» كانت أولى الأسباب التى جعلت فيلسوفنا يهجر نظرية «مور» الحدسية، مع العلم أن رسل لم يكن مقتنعًا فى البداية بالنظرية النقدية لموضوعية الخير التى وجهها إليه «سانتيانا» فى انتقاداته، فكانت فكرة رسل أنه على الرغم من الدور الذى كان لانتقادات «سانتيانا»، إلا أنها كانت انتقادات ناقصة وغير مكتملة لتجعله يتخلى عن رؤيته الحدسية(1).

إن القول بأنَّ رسل اتجه بعد تخليه عن الحدسية المورية إلى النظرية الانفعالية أو العاطفية، كان مبنيًا على انتقادات «سانتيانا» له، يعد قولاً ناقصًا فى بعض الوجوه، فكما أشار «هارى

(*) تعنى كلمة «انفعال» Emotion استثارة وجدان الفرد وتهييج مشاعره، وهو أمر متعلق بحاجات الكائن الحى ودوافعه. كانفعال الخوف المرتبط بالرغبة فى تفادى كل ما يهدد الكائن الحى أو يضر به. وكانفعال السرور الذى يصحب كل ما يشبع للفرد دوافعه ويحقق له الحماية والبقاء والسلامة والقوة، ومثل انفعال الغضب الذى يصحب مواجهة الفرد لخصمه الذى يهدد بقاءه أو مصالحه.
وللانفعال علاوة على بطانته النفسية مظاهر فسيولوجية عضوية، كارتفاع ضغط الدم وزيادة ضربات القلب، وارتفاع نسبة السكر فى الدم.
انظر - فرج عبد القادر طه، وآخرون: موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م، ص128.

(1) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, Continuum, London, New York, 2005, p4.

روجا» Harry Ruja أن العامل الحاسم فى تحول رسل إلى النظرية الانفعالية كان رغبة منه فى أن يجعل نظريته تتضمن واقعًا عمليًا خصبًا، وممارسة أفضل. ومن جهة أخرى يمكن القول أن رسل قد تحول بكل سهولة ويسر إلى تبني النظرية الانفعالية فى الأخلاق، وذلك لأنه لم يكن مقتنعًا بشكل مطلق بالنظرية المورية فى الرغبة من أجل الرغبة، فعندما قرأ رسل الأخلاق السكونية لسانتيانا كان فرحًا مسرورًا فى أن يتخلى عن النفعية المثالية لمور، واتجه نحو نظرية الخير النسبى فى الرغبة the Relativity of good to desire؛ لذا كان رسل غير مهتم بالدفاع عن نفسه ضد هجوم سانتيانا، ولا ينسى رسل هنا أن نظرية مور الحدسية قد أدت دورًا كبيرًا فى فكره الفلسفى، حتى اتخذ لنظريته الأخلاقية منحًا جديدًا[1].

وعلى هذا الصدد جاءت النظرية الانفعالية فى أخلاقيات القرن العشرين، لتبرهن على وجود الرغبة الذاتية كأساس أول أو قاعدة راسخة فى كل فعل أخلاقى، فكانت النظرية الانفعالية عند رسل بمثابة حلقة الوصل بين كل من النظرية الحدسية والطبيعية الأخلاقية، وعليها يمكن اعتبار النظرية الانفعالية النتيجة الثانية للدراسات التحليلية اللغوية التى حاولت اكتشاف العلاقة بين اللغة(*) والتفكير، وذلك على اعتبار النظرية الحدسية هى النتيجة الأولى فى حقل الدراسات التحليلية فى الأخلاق.

وقد كان الأثر الإيجابى للنظرية الانفعالية متمثلاً بصفة خاصة فى الفلسفة الوضعية المنطقية، التى ترى أن العبارات الأخلاقية فى الواقع ما هى إلا تعبير عن العواطف والإحساسات الخاصة، وعليها آثرت فى المقاربات بين رسل فى موقفه الانفعالى، أن أعرض بشىء من الإيجاز لموقف الوضعية المنطقية عند أعلام فلاسفتها أمثال «آير» و«كارناب» و«ريشنباخ».

---

(1) Ibid: pp. 4, 5.

(*) إن الاهتمام بأمور اللغة ومشكلاتها قديم جدًا، حيث يرجع هذا الاهتمام إلى السوفسطائيين، وسقراط وأفلاطون وأرسطو فى الفلسفة اليونانية. أما فى الفلسفة الحديثة فقد وجد الاهتمام بأمر اللغة وألفاظها عند فرنسيس بيكون فى كتابه «الأورجانون الجديد، وذلك فى حديثه عن أوهام السوق، فكان يحذرنا بيكون من أخطاء استعمال اللغة فى العلم، لأن اللفظ الواحد قد يحمل أكثر من معنى، وقد يكون من بين المعانى ما هو غامض، ولذلك ينبغى أن نحدد ألفاظنا ومعانيها تحديدًا دقيقًا حتى لا نقع فى الخطأ.

انظر- محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص140.

- ماهر عبد القادر: المنطق ومناهج البحث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م، ص221.

وقد ساهم تقدم العلوم والمنطق والرياضيات مساهمة إيجابية فى ظهور ذلك الاتجاه العاطفى فى أخلاق القرن العشرين، فالبديهية الأولى التى يقوم عليها هذا الاتجاه الأخلاقى كما حددها الدكتور: زكى نجيب محمود - فى خرافة الميتافيزيقا - «هو أن قيمة الشىء خيرًا كانت أو جمالاً- مجرد شعور ذاتى عند الإنسان نحو الشىء وليست هى بكائنة فيه، فأنا حين أنظر إلى الوردة - مثلاً- وأقول عنها أنها «جميلة» فالذى أراه هو بقعة من اللون ذات شكل معين، لها أبعاد معينة يمكن قياسها ويمكن رسمها على الورق، وكذلك «أرى» فى الوردة تركيبًا كيماويًا معينًا إذا حللتها، لكنى لن «أرى» فى الوردة عنصرًا اسمه «جمال»، و إذن فوصفى لها بهذه الصفة هو شىء أضفيه لها من عندى، و إن شئت دقة فقل هو وصف لشعورى إزاءها لا وصف لها هى، وعلى هذا لا يكون «الجمال» من بين ما أدركه من الوردة بحواسى، فالعبارة التى تحتوى على كلمة «جمال» هى عبارة فى الحقيقة تتحدث عما ليس يُحس، أى أنها عبارة ميتافيزيقية تخلو من المعنى[1]. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن مرد الحكم القيمى إلى الذاتية الإنسانية وليس الموضوعية العلمية.

وعلى هذا الأساس الذى قدمه أحد أئمة الاتجاه الانفعالى فى مصر والوطن العربى، فإن ما ينطبق على القضايا الجمالية ينطبق أيضًا وبالضرورة على القضايا الأخلاقية من حيث كونهما عبارات قيمة تخضع تحت معاول فلسفة القيم أو الأكسيولوجيا، وقد نوه الدكتور: زكى نجيب محمود - إلى ذلك بقوله «أن ما يجوز قوله عن العبارات الأخلاقية يمكن أن يقال كذلك عن العبارات الجمالية، من حيث أن كلتيهما تشمل ألفاظًا دالة على « قيمة» - كائنة ما كانت- ومعظم مجهودنا موجه الآن إلى إثبات أن العبارة التى تتحدث عن «قيمة» شىء - «خيرًا» كانت أو «جمالاً» هى عبارة فارغة من المعنى»[2]. وعليها كانت فلسفة الأخلاق عند أئمة الاتجاه الانفعالى ما هى إلا تعبير عن حالة نفسية عند المتكلم، أو هى شعور ذاتى بالحب أو الكراهية نحو شىء ما.

ومن جهة أخرى فإننا نجانب الصواب إذا قلنا أن النظرية الانفعالية فى اعتمادها على الذات الإنسانية، وميولها و إحساساتها المتغيرة، تنأى عن منهج التحليل اللغوى الأخلاقى،

(1) زكى نجيب محمود: خرافة الميتافيزيقا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953م، ص 111.
(2) المرجع السابق: ص112.

ألا وهـو «الميتا أخـلاق»[*] Meta-Ethics فإذا كانت النزعة الحدسـية المعبر عنها فى عناصر النظرية الأخلاقية للفيلسـوف الإنجليزى برتراند رسـل تعتمد بطريقة كلية على ذلك المنهج التحليلى، فإن النظرية الانفعالية على الرغم من قيامها على الرغبة Desire إلا أنها تدخل فى باب الميتاأخلاق التصورية، وذلك لكون الحكم الخلقى فى هذه النظرية لا يمكن الحكم على صوابه أو خطـأه، فهو يقوم فى جانب منه عن النظريات المعرفية للعلم، وأن يعتمد بطريقة كلية على الأمور اللغوية التحليلية.

ولذلـك فـإن النظرية الانفعاليـة عند برتراند رسـل، والمعبر عنها بصفـة خاصة فى كتابه «الدين والعلم» قد نجحت إلى حد كبير فى التغلب على العديد من العراقيل التى تم مواجهتها من جانب الآخرين، وذلك من خلال الاسـتفادة من الآراء التصورية التى أمدتنا بها نظرياته فى الرغبـة والدافع، وذلك على الرغم من كون النظرية الانفعالية عند رسـل كانت على درجة أقل من الميتا أخلاق[1]. ولكن إن كانت نظرية رسل الانفعالية على درجة أقل بمنطق التصورات الأخلاقى، أو منهج النقد الخلقى، فإن رسـل له السـبق فى التصريح والقول بهذه النظرية، فإنه هنا يسـبق الكثير من فلاسـفة القرن العشرين، الذين يعدون الـرواد الأول للإنفعال اللغوى الأخلاقى، آمثال «آيـر» أو «ستيفنسون»[**].

(*) تشير كلمة الميتا أخلاق Meta- Ethics فى الحقل الفلسفى إلى منطق التصورات الأخلاقية، فهى دائمًا تعتمد اعتمادًا كليًا على منهج التحليل الذى يعد الأساس الأول الذى بنيت عليه كل من النظرية الحدسية ثم النظرية الانفعالية فى الأخلاق، فالميتا أخلاق تشير إلى معنى الأخلاق التحليلية Analytic Ethics التى تعتمد على منطق النقد الخلقى، وهذا المنهج النقدى هو ما يميز النظرية الأخلاقية التحليلية Ethics عن المشكلة الخلقية Moral التى تعالج موضوعات السلوك البشرى فى أمور الحياة المعيشة (وقد أشرت فى الفصل الثانى إلى مضمون الميتا أخلاق عند الحديث عن التمييز بين معنى «خلقى» moral ومعنى «أخلاقى» ethical .. انظر هامش ص94) ... المؤلف.

(1) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, OP. cit, p.1.

(**) هو تشارلز ليزلى ستيفنسون، فيلسوف أمريكا فى منتصف القرن العشرين الميلادى، والذى عُرف بكتاباته الرائعة فى مجال الميتا أخلاق، أى دراسة العلاقة بين اللغة الأخلاقية، والفكر، والواقع، والمعرفة. ويتم وضعه بالتحديد دائمًا وجنبًا إلى جانب مع كل من «ريتشارد» و«آيـر» فى تطوير النظرية الإنفعالية فى فلسفة الأخلاق، وأهم كتاباته كان: المعنى الإنفعالى للمصطلحات الأخلاقية، وأيضًا الأخلاق واللغة.
انظـــر: Stanford Encyclopedia of Philosophy

وخير دليل على ذلك إذا رجعنا إلى تاريخ نشر رسل لكتابه «الدين والعلم» الذى كان فى عام 1935م، والذى كان غرضه الأساسى ليس مناقشة طبيعة الأحكام الأخلاقية فقط، بل التقليل من أهمية الدين تحت ستار العلم، فى حين نشر «آير» كتابه فى «اللغة والصدق والمنطق» عام 1936م، أما «ستيفنسون» فجاء كتابه «المعنى الانفعالى للمصطلحات الأخلاقية» عام 1937، أى بعد رسل بعامين[1].

لذلك يمكن القول بحق، أن رسل له فضل السبق فى القول بالنظرية الانفعالية قبل كل من الوضعية المنطقية برمتها، و«ستيفنسون» وغيره من الفلاسفة اللاحقين. وهذه الرؤية تقف على النقيض من رؤية كل من: «جيمس راشيل» James Rachels، و«قاموس بلاك ويل فى الفلسفة الغربية»، حيث أغفل «راشيل» دور برتراند رسل فى تأسيس النظرية الانفعالية، والتى وصفها بأنها من أعظم النظريات الاخلاقية فى القرن العشرين فى اعتمادها على الذاتية البسيطة، فى حين أنه قد جانب الصواب عندما جعل « تشارلز ليزلى ستيفنسون» الرائد والمطور للنظرية الانفعالية فى الأخلاق[2]، أما «قاموس الفلسفة الغربية» فقد أرجع تأصيل النظرية الانفعالية فى الأخلاق إلى «بيركلى» Berkeley، أما إنتشارها فكان على يد الوضعية المنطقية وبخاصة «آير»، أما تطورها فكان من نصيب «ستيفنسون». فى حين أنه قد جانب الصواب أيضًا عندما أغفل برتراند رسل ودوره فى الإشادة بالنظرية الانفعالية، وفصله مجال القيمة عن مجال العلم[3].

كما أضاف القاموس أن كل من النظرية الأخلاقية، والجمالية، وكذلك فلسفة اللغة يطلق عليهم جميعًا مسمى النظرية الانفعالية فى الأخلاق، من حيث كونها عبارة عن تعبيرات تقيمية عن ذات المتحدث[4]. ولكن الحق الذى ينبغى أن يقال هو أن رسل مؤسس النظرية الانفعالية، وطورها كل من «آير» و«ستيفنسون» وفريق الوضعية المنطقية.

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, At: http://plato.stanford.edu/entries/stevenson/ (21/4/2012)

(2) James Rachels: The Elements of Moral Philosophy The McGraw-Hill Companies, Inc, New York, Fourth Edition, 2003, p.36.

(3) Nicholas Bunnin, Jiyuan Yu: The Blackwell Dictionary of Western Philosophy, Blackwell Publishing Ltd, U.S.A, 2004, p.207.

(4) Ibid: p.207.

ولكن لم تستمر هذه النظرية مع رسل زمنًا بعيدًا، إذ سرعان ما تغير موقف الفيلسوف تجاه مشكلات الحياة المعيشة، فارتبطت النظرية القيمية عنده بالأطر السياسية لأحوال الوطن، ولا نجانب الصواب إذا قلنا أن رسل يقصد «وطنه» فحسب، بل بالأحرى- كانت الأمور السياسية لأحوال البشرية عامة، هى غايته ومقصده فى السعى نحو أخلاق واقعية، تقوم على أسس حقيقية من خلال مناهج أقرب ما تكون إلى الموضوعية العلمية، و إن كانت ليس هناك موضوعية أخلاقية ثابتة، فبعد ما يقرب من ثلاثين عامًا، وجدت رسل يغير من موقفه وهذا هو حاله فى فلسفة القيم، و إن كان أسلوب فلسفته أيضًا، فيكتب «المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة» و يتبنى فيه النظرية الطبيعية الأخلاقية كما كانت عند روادها الأمريكان من الفلاسفة، أمثال «ديوى» و«سانتيانا» و«بيرى» و«لويس».

وعلى أساس هذه التوطئة التى تدور حول الأسس الأصيلة لبذوغ النظرية الانفعالية، تكونت الإشكاليات الجوهرية، مثل:

1. إلى أى حد يعد برتراند رسل فيلسوفًا عاطفيًا يدين بالنظرية الانفعالية اللغوية فى فلسفة القيم؟ أعنى هل كان للإنفعال معنًى واضحًا فى فلسفته، أم كانت نظريته ساذجة بمعنى محاولة للهروب من بوتقة الحدسية المورية؟

2. إلى أى حد ظهر التناقض الواضح فى الجمع بين النظرية المعرفية للعلم والنظرية القيمية فى الأخلاق؟ وهل كانت إمكانية الجمع مستحيلة (مع العلم أن رسل فيلسوفًا معرفيًا أصيلاً)؟ وما الأسس التى بنى عليه رسل فصله بين العلم والأخلاق؟

3. ما هى طبيعة الرغبة فى الذاتية الانفعالية؟ و إلى أى حد تعذر الحكم بصواب وخطأ العبارات القيمية العاطفية؟ و إلى أى حد جاءت نظرية الرغبة مبنية على أسس تحليلية نقدية، أى منهجية التصورات الميتا أخلاقية؟

4. ثانيًا: ماهية النظرية الانفعالية.

ليس عجبًا أن يغير فيلسوف موقفه أو رؤيته تجاه مشكلات الحياة، فما فعله الفيلسوف الإنجليزى العظيم «برتراند رسل» من تغيير فى نظرياته الأخلاقية هو نتيجة حتمية لنقد الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» لنظريته الحدسية فى كتابه «رياح المذهب»، وقد

صرح بذلك فيلسوفنا في الكثير من كتبه مثل «مدح الكسل» أو «صور من الذاكرة» أو في المقال الذى كتبه «برتراند رسل» عن سانتيانا، بعنوان «فلسفة سانتيانا» Santayana`s Philosophy ضمن منشورات «مكتبة الفلاسفة الأحياء»، التى أشرف على نشرها «بول آرثر شيليب» P. A. Schilpp. بل أن هناك من الفلاسفة من قام بنقد التصور العام لتحليل الخيرية الحدسى، سواءً كان عند «مور» أو أتباعه اللاحقين، أمثال «ستيفن بيبر».

إن ما سبق ذكره ما هو إلا تمهيد لتأكيد تلك التحولات الجذرية في فكر الفيلسوف محل الدراسة، كما يؤكد على حقيقة مهمة، وهى تغيير رسل رؤيته الحدسية الأخلاقية برمتها، وتبنى منهج الوضعية المنطقية في فلسفة اللغة[*] The Philosophy of Language، وهو مسايرتهم في القول «بالنظرية الانفعالية في الفكر الأخلاقى»، وإن كان رسل في وقت لاحق هاجم الوضعية المنطقية، وذلك لسوء استخدامها لمنهج التحليل، حيث تطرفت في التحليل وأرادت قَصْرِ الفلسفة على ممارسات تقنية له في مجالات معينة، وبالتالى أنكرت حقيقة المشكلة الانطولوجية، وجدوى البحث في «تصور العالم»، وذلك عندما قصرت الفلسفة على تحليل العبارات العلمية[1].

كما أن تأكيد «ويتز» على ما جاء على لسان «تشارلى دنبار برود» في القول بأن «رسل» فيلسوفًا هوائيًا Russell is a flighty Philosopher لهو خير دليل على قيام «رسل» بتغيير موقفه

(*) فلسفة اللغة هى مجموعة مترابطة من الدراسات يعكف عليها المناطقة والفلاسفة، تنشأ عما يقلقهم من أسئلة ومشكلات تتعلق باللغة، كما أن علماء اللغويات حين تطورت علومهم ذهبوا إلى الخوض فيها وبحث مسائل منطقية أو فلسفية تنشأ عن أبحاثهم اللغوية.
وتعد فلسفة اللغة بالنسبة لـ«جوتليب فريجه» وكذلك جميع فلاسفة التحليل اللاحقين، هى الأساس لكل الفلسفات الأخرى، حيث أنها الوحيدة القادرة من خلال تحليل اللغة، أن تقوم بتحليل أفكارنا. بينما «رسل» رفض أن تكون دراسة اللغة هى الأساس لكل الفلسفات الأخرى.
انظر- محمود فهمى زيدان: في فلسفة اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003م، ص5.
Look also - Ray Monk: Was Russell An Analytical Philosopher? In, The Rise of Analytic Philosophy, edited by, Hans- Johann Glock, Blackwell Publishers LTD, Oxford, 1997, pp.35,37.

(1) يمنى طريف الخولى: جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، مقال منشور في مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد 30، يوليو وسبيتمبر، 2001م، ص11.

الفلسـفى كل بضعة سـنوات[1]. وقد عبر رسـل عن ذلك بقوله «لقد تغـيرت أرائى بالتوافق مع تغيرات العالم»[2]. وهو نفس المعنى الذى أشـار إليه فيلسـوف اللغـة الجارية البارز «جيلبرت رايل[*]» G.Ryle (1900 - 1976)، فى أن رسـل لم يؤسـس مدرسـة فلسفية معينة، ولم يقتنص أطر نسق فلسفى محدد، بل فقط ابتدع منهجًا للتفكير لم تعرفه الفلسفة قبل عام 1900م، ودأب على تطبيقه وتطوير النتائج وتنقيحها ومراجعتها، وهذا راجع إلى طبيعة المسـائل التى انشـغل بها، وأسلوبه فى تناولها. وهذا فى الوقت نفسه أحد الملامح الأساسية فى فكر رسل والجدير حقًا بالإعجاب[3].

إن التسـاؤلات التى طرحها برتراند رسـل فى حكمة الغرب، كانت بمثابة اللبنة الأساسـية الأولى فى بنـاء النظرية الانفعاليـة، أو كما يطلق عليها أحيانًا النظرية العاطفية، لأنها تبدأ من حياة الإنسـان المعيشـة وتنتهى بنا إلى داخل الذات الإنسانية، فرسـل يبدأ إشكالياته المنهجية فيقـول «وماذا نقول عن الإنسـان؟ أهو ذرة مـن الغبار تزحف بلا حـول ولا قوة على كوكب صغـير الشـأن، كما يراه الفلكيون؟ أم أن الإنسـان، كما يقول الكيميائيـون، حفنة من المواد الكيميائية ركبت بطريقة بارعة؟؟»[4].

إنه إلى جانب الأسـئلة السابقة، هناك الأسئلة الأخلاقية عن الخير والشر، فهل ثمة طريق صائـب وخير للحياة، وآخر باطـل، أم أن الطريقة التى نحيا بها محايدة بين الخير والشر؟؟ هل هناك شيئًا يمكننا أن نسميه حكمة، أم أن ما يبدو حكمة إنما هو جنون محض؟؟[5].

---

(1) M. Weitz: Analysis and the Unity of Russell`s Philosophy, op.cit, p.59.

(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص122.

(*) فيلسوف إنجليزى، وأحد زعماء الفلسفة اللغوية، وهو الآن أستاذ كرسى «وينفليت» للفلسفة الميتافيزيقية فى جامعة أكسفورد. وقد كان فى بداية حياته شديد التأثر بـ«هوسرل»، ولكنه صب اهتمامه الأساسى فيما بعد على التحليل اللغوى الحديث، حيث يعتقد أنه فى حالات كثيرة يختلط الأمر علينا نتيجة الشكل اللغوى والنحوى للتعبير عن الأفكار، مما يؤدى - كما يقول - إلى ما يسمى بأخطاء المقولات.
انظـر - خلف الجـراد: معجم الفلاسفة المختصر، مرجع سابق، ص99.

(3) يمنى طريف الخولى: جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص ص 10-9.

(4) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الأول، ترجمة / فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2010م، ص20.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

هـذه كلها أسـئلة محيرة، ومن المحـال أن يبت فيها المرء بإجراء تجـارب فى معمل، كما أن أصحـاب التكويـن الذهنى المسـتقل لا يقبلون أن يرتـدوا إلى ما يقوله أولئـك الذين يوزعون النبوءات الشاملة يمينًا ويسارًا[1].

إن التساؤلات السـابقة والتى قدمها الفيلسوف محل الدراسة نفسه، هى تساؤلات حقيقية ومهمة فى الحقل الأخلاقى، لذا فهى تحتاج إلى دراسات منفصلة، وذلك لتشعب الآراء الفلسفية وانقسـامها إلى اتجاهـات مختلفـة، ورواد النظريـة الانفعالية البـارزون فى هـذا الصدد، هم «هير[*]» و«وستيفنسـون»، وفريق الوضعية المنطقية برمته، ومشـكلتهم الرئيسية فى التمييز بين العلم ونظرية القيمة، إلى جانب تأثر رسل بهذه الاتجاهات والأخذ منها، والطعن فى بعضها- كما أشرت فى السطور السابقة- وأعنى بالطعن مهاجمته للوضعية المنطقية فى بعض من مواقفها، فعـلى الرغـم من تعاطفه مع الوضعيـة المنطقية إلا أنه لم يكن من أعضائهـا، بل لم يكن يتفق معهـم على أهم مبدأ من مبادئهم المميزة ألا وهو مبـدأ التحقق، وعلى ذلك فقد تأثرت الوضعية المنطقية بأفكاره تأثرًا كبيرا[2].

ومـن خلال هذه الـرؤى المتأرجحة بين التأثـير والتأثر، كانت الإجابات التى سـيقدمها الباحث فى بحثه محدودةَ العمق والشمول واليقين، لكونها تحتاج إلى عشرات الدراسات فى هذا المجال الدقيق.

تسـمى النظرية الانفعالية فى الأخلاق بالنظرية العاطفيـة، وذلك لأن ما يدفع إلى الحكم على شـخص ما أخلاقيًا هو أن يثير أداؤه أو سـلوكه مشاعر بعض الأشـخاص، ويدفعهم نحو التحول إلى الموافقة أو الرفض؛ أى أن سلوكه يثير تلك المشاعر التى تعدل من مواقف الآخرين

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(*) هو ريتشارد ميرفن هير R.M. Hare فيلسوف إنجليزى معاصر، ولد عام 1919م وكان زميلاً بكلية باليول فى جامعة أكسفورد، وقد عرف «هير» بأنه فيلسوفًا أخلاقيًا، حيث لقى كتابه «لغة الأخلاق» عام 1952م اهتمامًا شديدًا جدًا فى الأوساط الفلسفية. يرى «هير» أن المهمة الأولى للفيلسوف الأخلاقى هى توضيح طبيعة الأحكام والحدود الأخلاقية، لأن الأحكام الأخلاقية تختلف عن الجمل الوصفية التى تقال عن العالم لا من حيث مادتها، ولكن من حيث أنها أقرب إلى الأوامر منها إلى الجمل الوصفية.
انظـر - الموسوعة الفلسفية المختصرة: مرجع سابق، ص 525.

(2) محمد مهران رشوان: فلسفة برتراند رسل، مرجع سابق، ص29.

فى اتجاه الموافقة (أو الإقرار) أو عكسها. فإذا كانت هذه المشاعر تُعلِّمنا (تخبرنا) مثلاً عن السلوك المحتمل للشخص أو عن سلوكه فى الماضى، فإن صحة أو زيف هذا العنصر الوصفى ليس له أهمية فى الحكم على وضعه الأخلاقى. ومثل هذه النظريات قليلة، هذا إن وجدت، وقد ركزت على القضايا الواقعية، أو على استكشاف الظاهرة الأخلاقية[1].

فى بداية التحليل الأخلاقى للنظرية الانفعالية التى تبناها رسل، يمكن القول - توافقًا - مع كل من «بول إدوارد» و«راميندرا» Ramendra أن الموقف الأخير later position الذى تبناه رسل فى تطوره الأخلاقى، قد عرض له بشكل مختصر عام 1921م، وذلك عند إعادة طبعه لكتابه «عبادة رجل حر» a Free man`s Worship، كما قام فيلسوفنا بتوضيح بعض التفصيلات الجزئية فى «ماذا اعتقد؟» What I Belive؟ عام 1925م. وأيضًا فى «مجمل الفلسفة» عام 1927م، بينما حصلت نظريته الانفعالية على مكوناتها الكاملة فى كتابه «الدين والعلم» Religion and Science وكان ذلك عام 1935م، وكذلك فى «القوة» Power و«الرد على نقادى» Replay to my Critics ثم أخيرًا فى «المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة» عام 1955م[2].

وأكد «راميندرا» على قول «بول إدوارد» فرأى الأول أن الموقف الأخلاقى المسمى بالنظرية الانفعالية The Emotive Theory والذى تبناه رسل فى تطور فكره الفلسفى، هو ذلك الموقف الذى عرض له فى كتابه «الدين والعلم» عام 1935م، أى قبل نشر ألفريد جولس آير كتابه «اللغة والصدق والمنطق» Language, Truth and Logic بعام واحد، وهو ذلك الكتاب الذى عرض فيه «آير» أيضًا لنظريته الانفعالية فى الأخلاق[3].

فى مجمل الفلسفة يحاول رسل تحليل نظريته الانفعالية فيقول «إنَّ النظرية الخاصة بالانفعالات قد تغيرت عندما تم الكشف عن الدور الذى تؤديه الغدد الصماء the ductless glands فى هذا الأمر، فالشرط الضرورى لحدوث العاطفة هو ما تفرزه الغدد فى الدم، حتى

(1) بيتر إدواردز: مستقبل الأخلاق، مرجع سابق، ص90.

(2) Paul Edwards: Russell, Bertrand Arthur William, Op.cit, p.252.

(3) Dr. Ramendra: The Ethical Philosophy of Bertrand Russell, at. http://bihar.humanists.net/ethicsrussell.htm (16/4/2010)

أنه يقال أن التغيرات الفسيولوجية الجوهرية the essential physiological التى تنتج إفرازات الغدد الصماء هى نفسها الانفعالات[1].

وبناءً على ما سبق يحاول رسل توضيح التنوع والاختلاف فى أحكام الضمير الباطنية، فيرى أن الله تعالى قد زرع فى قلب كل إنسان التمييز بين الصواب والخطأ، فإذا أردنا تحاشى الوقوع فى الخطيئة كما يقول رسل، فما علينا سوى الاستماع لأصواتنا الداخلية أى إلى أصوات ضمائرنا، وعلى أية حال فهناك عقبتان تقفان فى وجه هذه النظرية، أولاهما: أن الضمير يقول أشياءً مختلفة لمختلف الناس، وثانيتهما: أن دراسة اللاوعى أعطتنا مفتاحًا لفهم الدوافع الدنيوية وراء ما تشعر به ضمائرنا[2].

وهنا يعطينا رسل الأمثلة المختلفة لتوضيح الاختلافات فى أوامر الضمير ونواهيه، فيرى أن ضمير البعض يدين نهب الفقراء للأغنياء، مثلما يدعو إلى ذلك الشيوعيون، فى حين نرى آخرين يدينون استغلال الأغنياء للفقراء على نحو ما يفعل الرأسماليون. والضمير قد يأمر إنسانًا بضرورة الذود عن بلاده إذا تعرضت للغزو فى حين أن نفس الضمير يخبر إنسانًا آخر بأن كل اشتراك فى الحرب ينطوى على الشر، وفى خلال الحرب العالمية الأولى وجد الحكام الذين لم يتوافروا على دراسة الأخلاق باستثناء عدد قليل منهم، أن الضميرَ شيءٌ محيرٌ للغاية، الأمر الذى دعاهم إلى اتخاذ قرارات غريبة مثل القول بأنه بإمكان الإنسان الامتناع عن القتال إذا كان ضميره مقتنعًا بذلك[3].

يحاول رسل تفسير مدى التنوع فى أوامر الضمير السابقة ونواهيه، فيرى أن التنوع يصبح شيئًا متوقعًا حين نفهم أسبابه، ففى مطلع حياتنا نرى أننا نرضى عن صنوف معينة من الأفعال، ونسخط على صنوف أخرى منها، وعن طريق تداعى الأفكار المعتادة تصبح اللذة والألم مرتبطين بالتدريج بهذه الأفعال ولا يرتبطان بمجرد الرضا أوالسخط الناتجين عن هذه الأفعال. وقد ننسى بمرور الوقت كل شيء يتصل بما مارسناه فى حياتنا الباكرة من تدريبات أخلاقية.

(1) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.226.

(2) برتراند رسل: الدين والعلم، ترجمة: رمسيس عوض، دار الهلال للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،1997م، ص225.

(3) المصدر السابق:نفس الصفحة.

ورغم ذلك فسوف نستمر فى الشعور بالألم وعدم الارتياح بصدد بعض الأنواع المعينة من التصرفات، فى حين أن بعض الأنواع الأخرى يحيط بها وهج الفضيلة[1].

أما الإنسان المستبطن لنفسه (عند الفيلسوف محور الدراسة) فيرى أن هذه المشاعر غامضة نظرًا لأنه لم يعد يتذكر الظروف التى نشأت هذه المشاعر فى ظلها، ولهذا فإنه من الطبيعى أن ننسب هذه المشاعر إلى صوت الله المحفور فى قلوبنا. ولكنَّ الضمير فى واقع الأمر نتاج التربية والتعليم، ويمكن تشكيله عند السواد الأعظم من الناس بحيث يشعر بالرضا أو السخط كما يرى رجال التربية والتعليم. بينما يكون من الصواب أن نرغب فى تحرير علم الأخلاق من التقيد بقواعد الأخلاق الخارجية، فإننا - كما يقول رسل- نكاد ألا نستطيع تحقيق ذلك عن طريق التمسك بفكرة الضمير[2].

إذا كان رسل يرى قصور الضمير البشرى فى التمييز بين الصواب والخطأ، أو يراه متقيدًا بقواعد الأخلاق الخارجية، مثلما وضح رسل بنفسه فى بداية العلم والأخلاق من كتابه «الدين والعلم»، إلا أنه وجد الحل المناسب لمشكلته الأخلاقية، فرأى أن الانفعالات هى التى تضفى على الحياة الدنيوية متعتها interesting It`s، وتجعلنا نشعر بأهميتها important It`s، ومن خلال هذه الرؤية الفلسفية كما يقول فيلسوفنا فإن الانفعالات تعد أهم عناصر الحياة البشرية على الإطلاق[3].

ولكن الظاهر فلسفيًا فيما يراه رسل، أن هذه الانفعالات ذاتها هى العائق الذى يمنع ويحول دون فهمنا للعالم فهمًا موضوعيًا دقيقًا غير متأثر بالأهواء الذاتية. فالانفعالات تجعلنا ننظر إلى العالم الخارجى فى مرآة من الأهواء والمشاعر والميول الذاتية، فنرى العالم مشرقًا bright حينًا، وفى الحين الآخر نراه قاتمًاdim، وذلك حسب ما يكون عليه وضع المرآة الخاصة بأهوائنا. ولو استثنينا من الانفعالات انفعالاً واحدًا، ألا وهو حب الاستطلاع، لقلنا أن الانفعالات جميعها تعوق hindrance الحياة العقلية، وذلك على الرغم من أن الدفعة القوية لقيامنا بالتفكير الناجح متصلة بخضوع الباحث لانفعالاته إلى حد كبير[4].

(1) المصدر السابق: 226.

(2) المصدر السابق: ص227.

(3) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.228.

(4) Ibid: p.228.

وهنا يتفق «رسل» مع الفيلسوف الفينومينولوجى «ماكس شلر» حيث رأى الأخير أن المشاعر تؤدى دورًا مهمًا بالنسبة لخبرة القيم، وهذه المشاعر مشاعر قصدية موجهة نحو هدف وغاية، وهى تتجه إلى الأشياء لتفرغ نفسها فيها، ولا تنتج عن هذه الأشياء بأى حال من الأحوال، وهذا التوجه القصدى ليس عشوائيًا أو تلقائيًا، و إنما هو رد فعل أو تفسير للشيء المعطى لنا ككائن، ولنفس الموقف الذى تتجه فيه مشاعرنا تجاه الكائن باعتباره كائنًا ذا قيمة[1].

و يؤكد رسل على أهمية الانفعالات فى رده على أحد نقاده، فيقول فيلسوفنا متمسكًا بما خطه فى مجمل فلسفته، «عندما قام أحد النقاد بتوبيخى؛ لأنى أقول أن العواطف الشريرة فقط هى التى تمنع تحقيق عالم أفضل، واستطرد مزهوًا ليسأل «هل كل العواطف الإنسانية هى بالضرورة شر؟؟» ففى الكتاب نفسه الذى أدى بـ «ناقدى» إلى هذا الاعتراض، أقول أن ما يحتاجه العالم هو الحب المسيحى، أو الرحمة، فهذه بالتأكيد إحدى العواطف، وقولى أن هذا ما يحتاجه العالم لا أقترح العقل كقوة دافعة، ولكن لا استطيع إلا افتراض هذه العاطفة، لأنها ليست قاسية ولا مدمرة»[2].

من خلال ما سبق ذكره عن الفيلسوف محل الدراسة يتضح أن المشاعر والعواطف الإنسانية، هى صاحبة القول الفصل فى النظرية الأخلاقية، فالتمييز بين الخير والسيء، أو الصواب والخطأ يعتمد بطريقة كلية على فن استثارة العواطف والمشاعر الإنسانية، وليس على الحجج العلمية والدلائل العقلانية، وهنا نجد أنفسنا نعود إلى جذور النظرية فنجدها عند هيوم فيلسوف المشاركة الوجدانية، كما أشرت سابقًا، فقد عنى هيوم بدراسة العواطف فى الكتاب الثانى من «رسالة فى الطبيعة البشرية» وعمد إلى دراستها دراسة تحليلية تفصيلية يعرض فيها لأصنافها، وما يجرى بينها من علاقات[3].

لقد رأى هيوم أن العقل وحده لا يمكنه بحال أن يؤثر فى الأفعال، وأنه عبد للعواطف، ومن ثم لا يمكنه أن يدعى لنفسه أية مكانة غير أن يكون خادمًا لهذه العواطف ومطيعًا لها،

(1) المرجع السابق: ص317.

(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص137.

(3) محمد فتحى الشنيطى: فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2010م، ص170.

وأنـه إذا كان كذلك فـلا جدوى من القول بأن الأخلاق يمكن اكتشـافها بالإسـتدلال العقلى وحده[1]. كما سـلب «هيـوم» من العقل قدرته فى التمييز بين الصـواب والخطأ، وبين الفضيلة والرذيلـة vice، فليـس للعقل مكانة على الإطـلاق، فوظيفته الوحيدة المنـوط بها، هى وظيفة فنيـة technical، بمعنى مسـاعدتنا فى إنجـاز الأهداف goals المرجوة من خـلال عواطفنا our passions، فليس للعقل مكان فى عملية تقييم evaluation الأهداف[2].

ولقد حاول رسـل تبيان مفهوم الخـير فى نظريته الانفعالية، فوجد أن اختلاف الفلاسـفة باختلاف اتجاهاتهم كوّن مفاهيمًا وتصوراتٍ مختلفة عن الخير. فالبعض يعتقد أن الخير يتلخص فى معرفة الله ومحبته، والبعض الآخر يرى أنه يتلخص فى الحب الكونى الشامل، ويؤمن آخرون بأن الخير يكمن فى الاستمتاع بالجمال، فى حين يؤمن فريق آخر بأنه يكمن فى اللذة[3].

ولكـن عندما نحاول أن نتحرى وجه الدقة والتحديد بشـأن مـا نعنيه حين نذكر أن هذا الـشيء، أو ذاك هو «الخير»، فإننا نجد أنفسـنا فى مواجهة صعوبـات كبيرة للغاية، فقد أثارت عقيـدة «بنتام» المؤمنة بأن «الخير» هو اللذة اعتراضًا يتسـم بالغضب العاصف، حتى قيل عن هذه الفلسـفة أنها فلسـفة خنزير. فلم يتمكن «بنتام» أو معارضوه من التقدم بمحاجاة فاصلة فى هذا الشأن[4].

أما فى القضايا العلمية فيرى رسل أن الجانبين المتنازعين يسوقان الأدلة والبراهين على سلامة وجهـة نظرهما، وفى النهاية يتضح أن أحد الجانبين يتمتع بمصداقية أكبر من الآخر[5]. أو تبقى القضية غير محسـومة إذا لم يتمكن الجانبان من أن يسوقا الدليل على صحة هذا أو ذاك، ولكننا لا نسـتطيع إقامة الدليل أو ننقضه فيما يتعلق بصحة القول، بأن هذا أو ذاك هو الخير النهائى، إذ أن كل متنازع يسـتطيع فقط أن يحتكم إلى مشاعره الخاصة، ويلجأ إلى استخدام تلك الحيل البلاغية القادرة على إثارة مشاعر الآخرين[6].

---

(1) محمد مدين: نظرية القيمة عند ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص5.

(2) Anthony Kenny: The Rise of Modern Philosophy, op. cit, P.261.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص228.

(4) المصدر السابق: ص229.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(6) المصدر السابق: ص230.

وهنا يلاحظ الباحث أن برتراند رسل يفصل بين نظريتين فى فلسفته، وهما النظرية القيمية، والنظريـة العلمية، من حيث فكرة الموضوعية التى تتمتع بهـا القضايا العلمية، التى من الممكن إثبات الصدق فى قضاياها، بينما مجال القيم ينطوى على العواطف أو بالأحرى الذاتية.

يؤكد رسل ما سبق عرضه بمثال مهم جاء على لسانه فى «الدين والعلم»، وهى عند مقارنته بين فلسـفة كل من «بنتـام»Bentham و«نيتشـه» Nietzsche انتهى فيلسـوفنا إلى أننا نواجه اختلافـا على درجة عاليـة من الأهمية العملية، حيـث أن «بنتام» كان يرى - كما يقول رسـل - أن اللذة التى يشـعر بها شـخص لها نفس الأهمية الأخلاقية للذة التى يشـعر بها شخص آخر بشرط أن يكون مقدار اللذة فى الحالتين متسـاويًا. وبناءً عليـه دافع «بنتام» عن الديمقراطية. بينـما يقف «نيتشـه» على النقيض من «بنتـام» حيث يرى الأول أن الإنسـان الأعلى فقط هو الذى نسـتطيع اعتباره مهمًا فى حد ذاته، وأن السواد الأعظم من الناس مجرد أدوات يستخدمها الإنسـان الأعلى لتحقيق سـعادته، فكانت نظرة «نيتشـه» إلى البشر العاديين كنظرة كثير من الناس إلى الحيوانات أو القطيع، فكان يرى أن هناك ما يبرر استغلالهم ليس لمصلحتهم، ولكن لمصلحة السوبرمان[1]. وبالتالى ينتهى موقف «نيتشه» إلى تدعيم مفهوم «الأرستقراطية».

من خلال الفكرة والنقيض أى «بنتام» و«نيتشه»، يرى رسل أنه ليس ثمة وسيلة علمية أو فكريـة يتمكن بها طرف مـن اقناع الطرف الآخر بصحة ما يذهب إليه، فلا شـك كما يقول رسـل أن هناك طرقًا يمكن استخدامها لتغيير آراء وأفكار الناس حول هذه الموضوعات، ولكن جميع هذه الطرق والوسـائل (فيما يرى رسـل) هى وسـائل انفعالية وعاطفية وليست عقلية أو فكرية[2].

يرى رسـل فى تأكيده على ما سـبق أنه إذا كانت القوة power شر، كما يبدو أنها كذلك، فلنرفضهـا مـن قلوبنا. ففى هذا الرفض تكمن حرية الإنسـان الحقيقية، فى تصميمه على عبادة الإله الذى خلقه فى ضميره حبًا للخير، وفى احترام السماء التى تلهمنا بالبصيرة فى أفضل أوقاتنا فى الفعـل والرغبة، فى أننا لا يجب أن نستسـلم دائمًا لطغيـان القوى الخارجية، ولكن فى التفكير وفى الإلهامـات نحـن أحرار من الكوكـب الصغير الذى تزحف عليه أجسـادنا بعجز، أحرار

(1) المصدر السابق: ص230.

(2) المصدر السابق: ص ص231-230.

حتى ونحن لا نزال أحياءً بعيدًا عن قبضة الموت. فلنتعلم إذن أن قوة اليقين هى التى تمكننا من الحياة باستمرار وفق رؤيتنا للخير، ولننزل فى أفعالنا إلى عالم الحقيقة بوضع تلك الرؤية دائمًا نُصبَ أعيننا[1].

لقد رأى رسل أنه يجب علينا أن نقول أوقفوا كراهية بعضنا البعض، تعلموا التعاون، هذا ما أود أن آراه، هذا ما أقبله[2]. «ففى كل الأمور، من الأفضل تمجيد كرامة الإنسان بتحريره ما أمكن من طغيان القوة اللاإنسانية»[3].

من خلال ما سبق يستنتج المؤلف أن مفهوم الخير والسيء أو الصواب والخطأ فى نظرية رسل الانفعالية، بل حتى الخير الأعلى الموجود فى الطبيعة الإنسانية، ما هو إلا انعكاسات لمشاعرنا وعواطفنا، أى انفعالاتنا الخاصة فى الحكم على قيمية الأشياء، فقيمة الشيء تكون من ما نضفيه على الشيء من خلال رغباتنا الذاتية وانفعالاتنا الخاصة، دون أن نكون فى احتياج مبرر أو دليل للبرهنة على صحة وخطأ أقوالنا.

ولذلك كانت النتيجة التى وصل إليها رسل فى نظريته الانفعالية هى «أن اختلاف الرأى بصدد القيم هو أساسًا اختلاف فى الأذواق، وليس بالنسبة لأى صدق موضوعى»[4].

يؤكد رسل أن التساؤلات المرتبطة بالقيم، أى المرتبطة بما هو خير أو سيء فى حد ذاته بغض النظر عن ما يترتب عليه من نتائج، هى تساؤلات تقع خارج نطاق العلم كما يؤكد على ذلك بشدة المدافعون عن الدين. وأظن أنهم على حق فى هذا الشأن، ولكنى استخلص نتيجة أخرى مترتبة على ذلك مفادها أن القيم تقع تمامًا خارج نطاق المعرفة. ومعنى هذا أننا عندما نؤكد أن هذا الشيء أو ذاك له قيمة، فإننا نعبر عن عواطفنا الذاتية ولا نعبر عن واقعة Fact تتسم بالسلامة أو الصدق حتى إن كانت مشاعرنا وعواطفنا الشخصية مختلفة[5].

(1) برتراند رسل: عبادة الإنسان الحر، ترجمة: محمد قدرى عماره، مراجعة: إلهامى جلال عماره، المركز القومى للترجمة، القاهرة، العدد 893، الطبعة الثانية،2009م، ص13.
(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص137.
(3) برتراند رسل: عبادة الإنسان الحر، مصدر سابق، ص12.
(4) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 681.
(5) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص231.

من هنا يمكن القول أن الموقف الانفعالى الذى تبناه رسل فى نظريته الأخلاقية، لا يبعد كثيرا عـن الموقف الذى تبنته الوضعيـة المنطقية المعاصرة، متمثلة هنا فى موقف «ألفريد جولس آير» وما عرضه فى كتابه «اللغة والصدق والمنطق»، وإن كان تعبير «آير» هنا فى النظرية الانفعالية الأخلاقية ما هو إلا نتيجة حتمية لموقفه فى دحض الميتافيزيقا، لأنه يراها فارغة من كل معنى، وذلك لأنها تقرر قضايا لا تحتمل الصدق أو الكذب، ولا تقبل التحقق على أى نحو[1].

لقد أسـس «آيـر» نظريته الميتا أخلاقية على أسـاس تجريبى مستمد من مبادىء الوضعية المنطقيـة التى كان على وفـاق تام معها. فقد قام «آير» بفحص العبارات الأخلاقية، فصنفها فى أربع فئات، كالتالى:

الأولى: أن جميع القضايا propositions ما هى إلا تعريفات definitions للحدود الأخلاقية أو انتقادات لهذه التعريفات.

الثانية: أن هذه القضايا عبارة عن وصف Describing لظاهرة phenomena الخبرة الخلقية وأسبابها.

الثالثة: أن هذه القضايا ما هى إلا مواعظ exhortations تحض على الفضيلة الخلقية.

الرابعـة: أن هـذه القضايا ما هى إلا أحـكام أخلاقية بالفعل، وبالتـالى هى تعبيرات عن انفعال خلقى أو شعور ذاتى، ومن ثم فهى خلو من المعنى المعرفى[2]. وهذا تناقض واضح.

ومن خلال الأربع فئات السابقة فإن «آير» يعد العبارات الداخلة فى الفئتين الأولى والثانية معرفيـة، فهو هنا يقبلها كجزء من العلم أو التحليل المنطقـى، أما العبارات الداخلة فى الفئتين الثالثة والرابعة فإنها عبارات معيارية، أى لا قيمة صدق لها لأنها مجرد تعبيرات عن الانفعالات والمشـاعر، وهنا قد أحس «آير» أنه قد بالغ كثيرًا حين سلب العبارات المعيارية قيمة صدقها لمجرد أن معناها غير قابل للتحقق منه بالملاحظة التجريبية، فأشـار إلى أن للعبارات المعيارية قيمة مهمة، باعتبارها وسائل للإلهام الخلقى[3].

(1) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، 1971م، ص148.

(2) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Victor Gollancz LTD, London, 1938, p.150.

(3) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية فى الأخلاق، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1973م، ص42.

ولقد قرر «الفريد آير» عند تحليله للقضية الأخلاقية المؤلفة من موضوع ومحمول، «أن وجود رمز أخلاقي ethical symbol في قضية لا يضيف شيئًا إلى مضمونها الواقعي»[1]. ومن ثم، «فإنني عندما أقول لشخص ما «لقد أخطأت حين سرقت تلك النقود» «You acted wrongly in stealing that money» لا أقرر أي شيء أكثر من قولي ببساطة «لقد سرقت النقود» فأنا حين قررت أن ذلك الفعل خطأ، فأنا لم أقدم أي شيءٍ آخر لهذه العبارة، و إنني بكل بساطة أبدي فيها استهجاني الخلقي my moral disapproval وهو أشبه بقولي «لقد سرقت النقود» بلهجة معينة، أو كما لو كتبتها مع إضافة بعض علامات التعجب. ولا تضيف اللهجة، أو علامات التعجب شيئًا إلى المعنى الدقيق للعبارة، و إنما يبين فقط أن هذا التعبير مصحوبٌ بمشاعر خاصة عند المتكلم»[2]. وحين يختلف فرد آخر معي على خطأ سرقة النقود، فإن معنى الخلاف هو أن لدى كل منا إزاء الحدث مشاعر مختلفة، لكن هذا الاختلاف لا يصل إلى حد التناقض أبدا[3].

ولقد سبق رسل «آير» في الوصول إلى نفس النتيجة على حد تعبير «كوبلستون» عن فيلسوفنا في «تاريخ الفلسفة» بقوله «إن أحكام القيمة عند رسل يُعبر

عنها بصيغة التمني، فالقول «س خير» معناه «ليت كل شخص يرغب في س» والقول «ص شر» معناه القول «ليت كل شخص يشعر بنفور من ص». و إذا أمعنا النظر في هذا التحليل، يتضح أن القول «القسوة شر» عندما يؤخذ على أنه يعني «ليت أن كل شخص لديه نفور من القسوة» لا يمكن وصفه بأنه صادق أو كاذب أكثر من القول «ليت أن كل شخص يقدر النبيذ الجيد»[4].

من هنا يمكن القول أن القضايا الأخلاقية أشباه مفاهيم، ومحمولاتها ليست محمولات حقيقية، أي أنها لا تشير إلى كيفيات حسية يمكن ملاحظتها، إنما تعبر فقط عن مشاعرنا[5]، بل رأى «آير»: «أن الألفاظ الأخلاقية ethical terms لا تعمل على التعبير عن المشاعر فحسب، بل أنها مجهزة لكي تثير في النفس المشاعر، وبالتالي تحث على الفعل»[6].

---

(1) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Op. cit, p.158.

(2) Ibid: p.158.

(3) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية في الأخلاق، مرجع سابق، ص46.

(4) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص ص682-681.

(5) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية في الأخلاق، مرجع سابق، ص46.

(6) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Op. cit, p.160.

بناءً على ما تقدم من تحليلات ميتا أخلاقية للنظرية الانفعالية، سواءً عند الفيلسوف محل الدراسة، أو عند أبرز ممثلي الوضعية المنطقية «آير» يجد الباحث أن هذه التحليلات جميعها تدور في مسار واحد، ألا وهو المشاعر، أو العواطف. فالمعنى هنا واحد، حتى أصبحت المشاعر هنا موضوعًا جوهريًا في بناء النظرية الانفعالية، لدرجة يمكن القول فيها أن النظرية الانفعالية نظرية في النقد الأخلاقي، أي أنها بالفعل نظرية لغوية في الأصل، قبل كونها أخلاقية، وبالتالي أصبحت نظرية ميتا أخلاقية أيضًا مبنية على أسس ومفاهيم سيكولوجية، في استحسان الفعل أو استهجانه، ولذلك فإنه من الصواب أن نطلق على النظرية الانفعالية عند رسل مسمى النظرية السيكولوجية في الأخلاق، أو بالأحرى النظرية اللغوية في الميتا أخلاق، وهذه إن دلت على شيء هنا، فإنها تعبر عن مضمون رؤية الباحث في تحليله للانفعالات الأخلاقية من خلال «الدين والعلم» أو «مجمل الفلسفة» لبرتراند رسل، وكذلك لما جاء في «اللغة والصدق والمنطق» لـ«آير». وخير تعبير هنا هو إطلاق اسم «مدرسة حكم القيمة» أو مدرسة الحكم الانفعالي As the Value Judgment or Motive Judgment School على النظرية الانفعالية في الأخلاق، حيث أنهم يعتقدون بأن وضع القيمة يتحدد بواسطة تحليل الجمل التي تحتوى مصطلحات القيمة[1].

وفي هذا المقام لابد من ذكر رؤية الدكتور: زكي نجيب محمود، حيث يراها الباحث معبرة عن موقف رسل والانفعاليين اللغويين، في قوله «تستخدم اللغة بطريقتين أساسيتين: أولاهما تجرى مع منطق العقل، وهي التي يجوز أن يقال في قضاياها أنها صادقة أو كاذبة استنادًا إلى مقاييس موضوعية مشتركة بين الناس، والأخرى تجيء تعبيرًا ذاتيًا عما يخالج المتكلم من مشاعر، على اختلاف تلك المشاعر، وها هنا لا منطق ولا قضايا تقاس بمقاييس موضوعية لتفرقة بين حق وباطل، وإنما هو المتكلم وحده الذي يؤمن بصدق تعبيره عن شعوره، ولا يغير الموقف أن يوافقه الأخرون على دعواه أو لا يوافقونه»[2].

ومجمل القول هنا أن هناك نوعين من العبارات الأخلاقية عبر عنهما الفيلسوف محل الدراسة في كتابه المعنون بـ«الدين والعلم»، وهما:

(1) رمضان الصباغ: النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص18.
(2) زكي نجيب محمود: قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1993م، ص175.

(1) أن العبارات الأخلاقية ليست عبارات دلالية Indicative أو معبرة عن واقعة fact-stating على الرغم من كونها تبدو كذلك.

(2) أن هذه العبارات الأخلاقية لنظرية رسل الانفعالية معبرة عن التمنى optative أو الرغبة desire[1].

ثانيا: انفصال العلم عن القيم

إلى أى حد يمكن أن يقال أن هناك علاقةً بين العلم والأخلاق؟؟ و إذا كانت هناك علاقةٌ فهل هى علاقةُ انفصالٍ أم ترابط؟؟ وما معنى قولنا بأن المتعةَ خيرٌ والألمَ شرٌ؟؟ و إذا قلنا ذلك فهل نحن نقرر شيئًا، أم نحن نعبر عن عاطفة يمكن التعبير عنها بصورة أكثر صوابًا لو أنها وضعت فى قالب لغوى آخر؟؟ وهل يمكن أن تكون هذه التعبيرات جزءًا من لغة الأخلاق فى أبسط صورها؟؟ و إذا كان الأمر كذلك، فهل العلاقة بينها و بين رغبات وعواطف و إحساسات من يستعمل هذه التعبيرات علاقة أساسية، أم هى تشير إلى الرغبات والعواطف والإحساسات العامة للجنس البشرى»[2]؟؟

كل هذه التساؤلات تستحق أن يكون لكل تساؤل منها بحثٌ منفصلٌ داخل إطار فلسفة الأخلاق، ولكن يمكن أن نحاول الإجابة عنها فى السطور القادمة، و إن كانت الإجابات المقدمة قد تخلو من العمق واليقين، ولذلك سوف أقوم بدايةً بتحليل رؤية رسل فى العلاقات القائمة بين كل من الأخلاق والعلم (المعرفة) من وجهة نظر تحليلية.

فى البدء يريد المؤلف فى بحثه هنا أن يوضح حقيقة مهمة، وذلك قبل شروعه فى تحليل انفصال العلم عن الأخلاق فى نظرية رسل الانفعالية وهى أن رسل يعد بمثابة الركيزة الأساسية الصلبة فى بناء الفلسفة التحليلية المعاصرة، ولا يخفى على الباحث أمور منها: أن رسل فى المقام الأول هو فيلسوف المنطق الرياضى فى القرن العشرين بلا منازع، كما أنه فيلسوف النزعة العلمية فى نظرية المعرفة، أكثر من كونه فيلسوفًا للأخلاق ونظرية القيمة بوجه عام.

(1) Dr. Ramendra: The Ethical Philosophy of Bertrand Russell, at. http://bihar.humanists.net/ethicsrussell.htm (16/4/2010)

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص97.

إذا كان رسل فيلسوفًا من فلاسفة نظرية المعرفة، فإنه قد سعى إلى المعرفة منذ صغره، فتراه يقول عنها: «وبنفس الدافع سعيت إلى المعرفة، كنت أرغب فى فهم قلوب الناس، ومعرفة السبب الذى يجعل النجوم تضىء. كما حاولت أن أتبين القوة التى قال بها فيثاغورث والتى بمقتضاها يسيطر بها العدد على فيض الكائنات، وقد حققت شيئًا من ذلك، ولكنى لم أصل إلى الكثير»[1].

كما أكد رسل على أنه إلى جانب البواعث التقليدية التى هدته إلى طريق الفلسفة، فقد كان هناك دافعان، كان لهما الأثر الأكبر عليه: أحدهما وأبقاهما أثرًا هو الرغبة فى أن يجد معرفة يمكن قبولها على أنها يقينية، وأما الآخر فكان رغبته فى أن يجد شيئًا يشبع رغباته الدينية[2]. كما أن الفلسفة فى نظره وليدة اتحاد Unity وصراع بين دافعين إنسانيين مختلفين: أحدهما دافع وجدانى يدفع بالناس إلى التصوف Mysticism، والآخر دافع إدراكى يدفع بالناس إلى العلم، ولقد فطن إلى ذلك العديد من الفلاسفة إلى ضرورة وجود العلم والتصوف»[3].

و إذا كان الأمر يبدو كذلك فإن رسل يبدأ بتعريف العلم، فيراه محاولة عن طريق الملاحظة، و إعمال العقل القائم على هذه الملاحظة لاكتشاف الحقائق الخاصة بالعالم، ثم اكتشاف القوانين التى تربط الحقائق ببعضها البعض[4]. وذلك على الرغم من كون العلم لا يهدف إلى إرساء حقائق ثابتة وعقائد أبدية، و إنما هدفه الاقتراب من الحقيقة بتقريبات متتابعة، دون أن يدعى فى أية مرحلة أنه قد وصل إلى الدقة النهائية الكاملة[5].

والعلم فى الحالات التى تصادف حسن الحظ يجعل من الممكن التنبؤ بأحداث المستقبل، والتكنيك العلمى يرتبط بهذا الوجه النظرى للعلم، و يستخدم هذا التكنيك المعرفة العلمية لتوفير الراحة ووسائل الترف التى كان يستحيل تحقيقها فيما مضى، أو التى كانت على أقل تقدير تتكلف نفقات باهظة فى العصور السابقة على عصر العلم[6].

(1) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، مصدر سابق، ص7.

(2) فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفى المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص23.

(3) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, George Allen and Unwin Ltd, London, Eighth Published, 1949, p.1.

(4) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص3.

(5) برتراند رسل: ألف باء النسبية، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: محمد مرسى أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م، ص159.

(6) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص4.

يتضح من تعريف العلم الذى قدمه رسل أنه كان واحدًا من بين الفلاسفة الذين بهرهم العلم ومنجزاته، وذلك فى الوقت الذى رأى فيه افتقار الفلسفة إلى المنهج العلمى، والذى قد يحقق فيها نتائج يقينية تكون موضع اتفاق الفلاسفة جميعهم على نحو ما نجده فى العلم، مع ملاحظة أن الفيلسوف ليس عالمًا، وأن العالم ليس فيلسوفًا، بمعنى أن أحدهما لا يحل محل الآخر فى وظيفته حتى لو كان للعالم اهتمامات فلسفية أو للفيلسوف اهتمامات علمية[1].

ولذلك قارن رسل بين الفلسفة والعلم فقال: «أن الفلسفة ليست علمية لأن مناهجها التقليدية وطبيعة الموضوعات التى تتناولها لا يمكن أن تجعلها كذلك، فإذا كان العلم ينتهج المنهج العلمى فى الوصول إلى حقائقه، فإن الفلسفة تفتقر إلى هذا المنهج، وهنا جاء السؤال- ألا يمكن أن يكون للفلسفة منهج علمى؟ ثم ألا يمكن أن تكون الفلسفة علمية كما هو الحال فى العلوم الخاصة؟ وكان الرد على هذين السؤالين عند فيلسوفنا بالإيجاب[2].

ولقد أكد رسل أن العلم لا يبدأ بالفروض العريضة بل بالحقائق الفردية التى تكتشفها الملاحظة أو التجربة، ويستخلص العلم قاعدة عامة من عدد من هذه الحقائق الفردية. فإذا كانت القاعدة العامة سليمة فإن الحقائق الفردية موضوع البحث تكون مجرد أمثلة. والعلم لا يؤكد هذه القاعدة العامة بشكل مطلق ولكنه يبدأ بقبولها كافتراض صالح للعمل به، وفى حالة سلامة هذا الافتراض فإن بعض الظواهر غير الخاضعة للملاحظة حتى الآن سوف تحدث فى ظروف معينة، فإذا رأى المرء أنها تحدث فإن هذا يعتبر تأكيدًا لصحة الافتراض. وإذا لم تحدث فلابد من نبذ هذا الافتراض واختراع افتراض جديد بدلا منه[3]. ومن ثم فالعلم هنا يشجع التخلى عن البحث فى الحقيقة المطلقة، ويستبدل بها ما يمكن تسميته بالحقيقة التقنية المنتمية إلى أية نظرية يمكن استخدامها بنجاح فى الاختراعات أو التنبؤات بالمستقبل[4].

ولكن.. ما الكيفية التى صاغ بها برتراند رسل فلسفته العلمية؟؟ وإلى أى حد اصطبغت

(1) داليا سلامة على سالم: موقف رسل من الفلسفة البراجماتية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس، 2005م، ص21.
(2) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص9.
(4) المصدر السابق: ص10.

المعرفة العلمية بنظريته القيمية؟؟ و إلى أى حد حاول رسل أن يجعل الفلسفة تقبع داخل إطار المنهج العلمى؟؟

هناك حقيقة معترف بها لدى غالبية فلاسفة القيم، ألا وهى أن مجال فلسفة الأخلاق ما زال موضع خلاف بين باحثيه، لأن طبيعته وعلاقاته بغيره من العلوم مثار للخلافات بين العلماء فى شتى المدارس، وتصوره مشوب بالإبهام عند المتعلمين بوجه عام، وهو يقوم على مفاهيم وتصورات تثير النزاع والجدل بين المشتغلين به.

كما أن البحث فى مسائل القيمة لا يتمتع بدرجة واحدة من المشروعية عند بعض مذاهب الفلاسفة المحدثين، حيث تعرضت مسائل الفلسفة فى الفترة الأخيرة إلى الإنكار والجحود على يد فريق من الفلاسفة، كما تم نزع أوراق اعتمادها منها، وعزلت الفلسفة عن منصبها التقليدى لتصير وصيفة للعلم، تتسقط قضاياه وتصوراته، وتتبعها بالتحليل المنطقى أو اللغوى، دون أن يكون لها الحق فى التعبير عن مشكلات تختص بها وحدها، تبحث فى تفسيرها أو تجد حلولاً لها. وأقصد بهذا الفريق الوضعية المنطقية وبعض فلاسفة التحليل فى الفكر المعاصر، أمثال رسل، ومور، وفتجنشتين من فلاسفة التحليل، وكارناب، وآير، وشليك، وفايجل، وريشنباخ من الوضعيين المناطقة، وغيرهم الكثير، حيث يتفق هؤلاء كثيرًا أو قليلاً على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة قضايا العلوم الرياضية والتجريبية، لأن هذه القضايا هى وحدها التى تحمل معنى، وغيرها من القضايا والعبارات لغو باطل، وكلام بلا معنى[1].

وقد اعتمدت هذه التيارات الفلسفية من الوضعيين المناطقة أو فلاسفة التحليل بوجه عام، على منهج فلسفى اعتمدوا عليه جميعاً فى كتاباتهم، ألا وهو منهج التحليل، ومن خلال هذا المنهج الذى قامت على أكتافه فلسفات التحليل، وصفت الفلسفة التحليلية بأنها كانت «ثورة» فلسفية على النزعات المثالية، وقد بدأت هذه الثورة فى كيمبردج بانجلترا، وكان «مور» و«رسل» و«فتجنشتين» قادة هذه الثورة[2].

كما أن تطور العلوم الرياضية والطبيعية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

(1) صلاح قنصوه: نظرية القيم فى الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص24.
(2) محمد مهران رشوان: دراسات فى فلسفة اللغة، مرجع سابق، ص23.

يعد من المصادر المهمة للحركة التحليلية، فالمتتبع لتاريخ الفلسفة يلاحظ فيما يقول رسل تيارين متعارضين فى الفلسفة - كما أشرت من قبل- أحدهما يستوحى التفكير الرياضى، والآخر متأثر إلى حد كبير بالعلوم التجريبية، وكان أفلاطون وتوما الأكوينى واسبينوزا وكانط من الممثلين للتيار الأول، بينما كان ديموقريطس وأرسطو والتجريبيون المحدثون منذ «لوك» يمثلون التيار الثانى. وجاءت المدرسة التحليلية لتعمل على استبعاد النزعة الفيثاغورية من مبادئ الرياضيات ومزج النزعة التجريبية باهتمام معين بالجوانب الاستنباطية من المعرفة الإنسانية. فأهداف هذه المدرسة أقل تأملية من الأهداف التى كان ينشدها معظم الفلاسفة فى الماضى، إلا أن بعض منجزاتها صلبة وراسخة كمنجزات رجال العلم[1].

وهناك فيما يرى رسل طريقان يمكن بهما للفلسفة أن تقام على دعائم العلم، الأول: أن ترتكز على نتائج العلم العامة، وتبحث فى إعطاء هذه النتائج عمومية ووحدة أكثر، والثانى: أن تدرس مناهج العلم، وتبحث فى تطبيقها- مع إدخال التعديلات الضرورية على مجالها الخاص. ويلاحظ رسل أن كثيرًا من الفلسفات التى استلهمت العلم قد أخذت بالطريق الأول، إلا أنه يرى أن المناهج وليست النتائج هو ما يمكن نقله على نحو مفيد من مجال العلوم الخاصة إلى مجال الفلسفة[2].

إذن العلم ينهض على المعرفة الموضوعية لا على الرغبة ولا على الحماس العاطفى، فإذا كنا نرغب فى تسخير الطبيعة فليس لنا من سبيل لتحقيق ذلك إلا بفهم الطبيعة فهمًا موضوعيًا، وبذلك يمكننا أن نتحكم فيها، وعلى هذا يصدق شعار «فرنسيس بيكون»:» لكى نسود الطبيعة ينبغى أن نعرفها». ونحن إذا أطعنا قوانين الطبيعة أمكننا أن نحكمها[3]. وعلى ذلك يظهر تأثر رسل بـ«فرنسيس بيكون» فى نظرية المعرفة وفلسفة العلم، مما جعل سانتيانا يصف رسل بأنه «فرنسيس بيكون القرن العشرين»[4].

---

(1) محمد مهران رشوان: فلسفة برتراند رسل، مرجع سابق، ص21.

(2) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.98.

وانظر أيضًا- محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984م، ص172.

(3) محمد فتحى الشنيطى: المعرفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1981م، ص29.

(4) زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص217.

كما يمكن القول بأن الفلسفة الواقعية الجديدة والتى يعد رسل من كبار روادها تنصرف باهتمامها الأكبر إلى نظرية المعرفة بدل الميتافيزيقا، و إلى الإنسان كيف يعرف ما يعرفه، فلئن كان الفلاسفة الميتافيزيقيون السابقون يعنون بإقامة بناءات فلسفية متسقة يحاول البناء الواحد منها أن يشمل الكون كله بمن فيه وما فيه كأنه حقيقة واحدة بغير تجزئة ولا فواصل، فقد جاء هؤلاء الواقعيون الجدد يفتتون المشكلات الفلسفية ليعالجوها واحدة بعد واحدة دون أن يعنوا فى كثير أو قليل بأن تكون هذه المشكلات، أو لا تكون أجزاء من مسألة واحدة كبرى، ومن هذه المشكلات الجزئية، بل فى مقدمتها وعلى رأسها مشكلة المعرفة الإنسانية كيف تكون[1].

ومن خلال المعرفة العلمية التى ينادى بها رسل نصل إلى قانون علمى، وهذا القانون يجب أن يمر بثلاث مراحل رئيسية: الأولى ملاحظة الحقائق ذات الدلالة، والثانية الوصول إلى فرض يفسر هذه الحقائق إن صح، والثالثة أن نستنبط من هذا الفرض بطريق القياس نتائج يمكن اختبارها بالملاحظة. فإذا تبينت صحة النتائج، قُبل الفرض مؤقتًا على أنه فرض صحيح، و إن كان فى العادة يحتاج إلى إجراء تعديل فيما بعد، نتيجة لكشف حقائق جديدة[2].

يؤكد رسل أن العلم فى بدايته كان راجعًا إلى الرجال الذين أحبوا العالم، كانوا يسرحون بأبصارهم فى جمال النجوم والبحر، والريح والجبل. وكان من أثر حبهم إياها، أن عقدت بهم أفكارهم. فرغبوا فى فهمها فهمًا أدق مما يتيحه مجرد التأمل الخارجى، فيقول هرقليطس: «إنَّ العالم نار لا تخمد جذوتها، يزداد وهجها بمقدار، ويخفت بمقدار» فهرقليطس وغيره من الفلاسفة الأيونيين الذين منهم أتت الشرارة الأولى للمعرفة العلمية، قد شعروا بالجمال العجيب للعالم، شعورًا أشبه بالجنون يسرى فى دمائهم، ومن قوة عاطفتهم العقلية ظهرت حركة العالم الحديث كلها[3].

من أجل هذا ينبغى أن ينظر إلى مستقبل المجتمع العلمى فى توجس، فالمجتمع العلمى فى صورته الخالصة، وهى التى كنا نحاول رسمها، لا يتسق مع البحث عن الحقيقة، ولا مع

(1) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، مرجع سابق، ص36.
(2) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص46.
(3) المصدر السابق: ص251.

الحب، ولا مع الفن، ولا مع المتعة الخالصة، ولا مع أى من هذه المثل العليا التى اعتنقها الإنسان حتى الآن، فيما عدا مثل واحد منها وهو التقشف. وليست المعرفة هى مصدر هذه الأخطار، فالمعرفة خير والجهالة شر، وليس لهذه القاعدة من شواذ فى نظر محب العالم. وليس يكمن الخطر كذلك فى المقدرة فى ذاتها ولذاتها، و إنما يكمن فى المقدرة التى تنال من أجل المقدرة، لا المقدرة من أجل الخير المخلص[1].

من خلال ما سبق يتضح أن برتراند رسل يجعل ميدان العلم منبثقًا من باطن نظرية المعرفة «الإبستمولوجيا»، و يعتمد فى بحثه كنظرية معرفية على الوضوح، وكذلك الموضوعية، فالحقيقة العلمية قائمة هناك، محايدة ومستقلة عن الإنسان، وعلى رجل العلم أن يكشف عنها النقاب[2]، وللعلم وظيفتان: فهو أولًا يجعل فى مقدرتنا أن نعلم الأشياء، وثانيًا يجعل فى مقدورنا أن نفعل الأشياء[3]. وعليها عُد رسل رائد حركة «الفلسفة العلمية» التى تريد للفلسفة أن تحقق من التقدم مثل ما أحرزه العلم، وأن تتخلى عن الكثير من المشكلات الميتافيزيقية الضخمة، لكى تقتصر على دراسة بعض المسائل المنطقية والطبيعية وفقًا للمنهج العلمى[4].

وهنا يدور التساؤل ...إذا كان هذا هو حال العلم يقوم على الملاحظة ثم الافتراض فالتجربة منتهيًا إلى قانون مفسرًا مشكلته، فما هو النهج الذى اتبعته نظرية القيمة الانفعالية هنا، من خلال كونها مؤسسة على المشاعر الذاتية والعواطف الإنسانية المتقلبة بين اللحظة والأخرى؟؟

إذا أردت هنا بحث العلاقة بين العلم أو نظرية المعرفة وفلسفة الأخلاق أو القيم، فإن رسل يحددها من خلال نصوصه الصريحة التى جاءت فى بعض من كتبه الفلسفية، حيث يقول «فغايات الحياة بالنسبة لكل فرد هى تلك الأشياء التى يرغبها رغبة عميقة، والتى يكفل له وجودها الأمن والطمأنينة، فإن كان الأمن والطمأنينة أعظم من أن يُطلبا من حياتنا الدنيا،

(1) المصدر السابق، ص253.

(2) سناء خضر: الفلسفة الخلقية والعلم، مرجع سابق، ص231.

(3) برتراند رسل: أثر العلم فى المجتمع، ترجمة / تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م، ص17.

(4) زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص217.

فلنقل أن غايات الحياة ينبغى أن تمنح البهجة والسرور والمتعة. أن هناك شائبة تشوب الرغبات الواعيـة للباحث عن المقدرة من أجل المقدرة، فهو حين يحصل على المقدرة، لا يبغى غير مزيد من المقدرة، ولا يجد الراحة فى تأمل ما لديه. ويسـتطيع العاشق والشاعر والمتصوف أن يجدوا من الرضى ما لا يسع الباحث عن المقدرة أن يجده فى أى وقت من الأوقات، لأنهم يجدون الرضى فى محبوبهم، وأما الباحث عن المقدرة فلابد من أن يكون مشغولاً أبدا بعمل جديد إذا شاء انقاذ نفسه من فراغ حياته»[1].

«لذلك فإنى أعتقد أن نعيم العاشـق - وأنا أسـتخدم هذا اللفظ فى أوسع معانيه- يفوق نعيم الطاغية، ويسـتحق مكانًا أسـمى منه بين غايات الحياة. فحين يُقبل على الموت، لن أشـعر بأنى قد عشـت عبثا. فقد رأيت الدنيا تحمر مسـاء، ورأيت الندى يتلألأ صبحا، ورأيت الثلج يلمع تحت شـمس الصقيع، لقد استفت المطر بعد العاصفة، وسـمعت الأطلنطى فى زوبعته يضرب شواطىء الصوان عند كورونول. ويستطيع العلم أن يضفى هذه المتع وغيرها من المباهج على عدد من الناس يزيد عمن يسـتطيعونها من دونه. فإن فعل فقد اسـتخدمت مقدرته فى حكمة. وأما إن سـلب الحياة لحظاتها التى إليها مرد قيمة الحياة، فالعلم لا يسـتحق الإعجاب، مهما قاد النـاس بمهارة وكياسـة فى الطريق إلى اليأس. إن مجال القيم يخـرج عن مجال العلم من حيث أن العلم بحث عن المعرفة، كما أنه بحث عن المقدرة، فيجب ألا يتطفل على مجال القيم»[2].

وأكد رسـل على ذلك القول أيضًا فيما كتبه فى التصوف والمنطق عندما قال: «إن اعتقادى هو أن الدوافع Motives الأخلاقية والدينية، كانت على الرغم من ما منحته من أنساق خيالية رائعـة Imaginative systems هـى العائق a hindrance فى طريق تقدم الفلسـفة. لذلك كان ينبغى على أولئك الذين يريدون اكتشـاف الحقيقة الفلسفية Philosophical Truth أن يقوموا باسـتبعاد الدوافـع الأخلاقية والدينية، بل إن العلم أيضًا قد تـورط بالمثل فى هذه الدوافع التى أدت إلى تعثره وإعاقته فى سبيل التقدم، ولم يتقدم العلم إلا بعد إزاحتها من على كاهله. حيث أن العلم أبقى من الأخلاق والدين، تلك هى الفلسفة التى ينبغى أن نسير عليها[3].

(1) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص254.

(2) المصدر السابق: ص ص 254،255.

(3) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, pp.97, 98.

مـن خـلال النصوص السـالفة الذكر يتضح أن رسـل يرفـض أن يضفى عـلى «الأخلاق» صفـة المعرفة العلمية، وذلك لأنه ليس ثمة معرفة علمية من قبيل الصدق والكذب فى الأحكام الأخلاقيـة، بل لا توجد مصطلحات أخلاقية تكون بمثابة كلمات نهائية[1]، ومن ناحية أخرى فإن العلم لا يستطيع أن يحسم مسائل القيمة، لأن هذه المسائل لا يمكن أن تحسم بصورة عقلية بأى حال من الأحوال، ولأنها تقع خارج نطاق الصدق والكذب. فكل معرفة هى معرفة قابلة للاكتسـاب، و ينبغى أن تكتسـب عن طريق المناهج العلمية وما لا يستطيع العلم أن يكتشفه لا يسـتطيع البشر أن يعرفوه[2]. فحياة الوجـدان أهم من المعرفة ذاتها، فالعالم بغير بهجة وغير حـب هو عالم تجرد مـن القيم. إن هذه الأمور يجب أن يذكرها مطبـق العلم، ولو فعل، لكان عمله خيرًا خالصًا. وكل ما يطلب إنما هو ألا تسكر الناس خمر المقدرة الجديدة، فينسون تحت تأثيرها تلك الحقائق التى كانت معروفة لكل جيل من قبلهم، فليست كل الحكمة جديدة، ولا كل الحماقة قديمة[3].

وهنـا كان لزامًا على الباحث أن يعرض أيضًا لمنهج الوضعيـة المنطقية فى صياغتهم اللغوية لعلاقـة العلـم بالأخلاق، حيـث أنهم كما ذكرت مـن قبل، أصحـاب الدور الرائـد فى النظرية الانفعالية فى الأخلاق، فتكونت رؤيتهم القيمية من خلال منهجهم العلمى القائم على التحليل.

لقـد رأت الوضعية المنطقية أن البرنامج الذى يرمى إلى إقامة الأخلاق على أسـاس معرفى، هو نتيجة لسوء فهم للمعرفة، وللرأى الباطل القائل أن المعرفة تنطوى على جانب معيارى[4].

لذلك كان مسـتخلص رؤية «هانز ريشـنباخ»[*] Hans Reichenbach (1891 - 1953)

(1) John L. Mckenney: Concerning Russell`s Analysis of Value Judgments, in The Journal of Philosophy, vol. 55, No. 9 (Apr. 24, 1958), p.382.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص ص27،28.

(3) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص258.

(4) سناء خضر: الفلسفة الخلقية والعلم، مرجع سابق، ص231.

(*) ولد «هانز ريشنباخ» Hans Reichenbach بمدينة «هامبورج» Hamburg بألمانيا فى السادس والعشرين من شهر سبيتمبر عام 1891م، وتلقى تلعيمه فى إرلنجن Erlangen وشتوتجارت Stuttgart حيث درس الفيزياء والفلسفة، وفى عام 1926م عُيّن محاضرًا بجامعة برلين، وعندما استولى النازيون على مقاليد الحكم فى ألمانيا عام 1933م، غادر «ريشنباخ» البلاد واتجه إلى تركيا حيث قام بالتدريس بجامعة استانبول=

تكمن فى تحليله انفصال العلاقة بين العلم والأخلاق، حيث يقول فى «نشأة الفلسفة العلمية» The Rise of Scientific Philosophy «وهناك نتيجة نستطيع أن نستخلصها فورًا من تحليل العلم الحديث، تلك هى أن الأخلاق لو كانت ضربًا من المعرفة، لما كانت على نحو ما أرادها الفلاسفة الأخلاقيون أن تكون، أى لما كانت تقدم توجيهات أخلاقية. فالمعرفة تنقسم إلى قضايا تركيبية وقضايا تحليلية، والقضايا التركيبية تنبئنا عن الأمور الواقعة، أما القضايا التحليلية فهى فارغة. فأى نوع من المعرفة تكون الأخلاق؟؟ إنها لو كانت تركيبية لكانت تنبئنا بمعلومات عن الأمور الواقعة، وإلى هذا النوع تنتمى الأخلاق الوصفية التى تنبئنا عن العادات الأخلاقية لمختلف الشعوب والطبقات الاجتماعية، ومثل هذه الأخلاق تعد جزءًا من علم الاجتماع، ولكن طبيعتها ليست معيارية، أما لو كانت الأخلاق معرفة تحليلية، لكانت فارغة، ولما استطاعت أن تدلنا أيضًا على ما ينبغى عمله»[1]. كما أن «العبارات الأخلاقية إذا كانت تحليلية، فإنها لن تكون توجيهات أخلاقية Moral Directives»[2].

= Istanbul لمدة خمسة أعوام تقريبًا. وفى عام 1938م (قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة) رحل إلى الولايات المتحدة، حيث شغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة كليفورنيا California بلوس أنجلوس، حتى وفاته فى التاسع من أبريل عام 1953م.

وقد ذكرت زوجته «ماريا ريشنباخ» Maria Reichenbach أن زوجها كان يعتزم كتابة سيرة حياته الفكرية على نحو أكثر عمقًا، وذلك كجزء من مجلد «فلسفة ريشنباخ» فى سلسة «مكتبة الفلاسفة الأحياء» إعداد «شيلب» Schilpp، والذى كانت موضوعاته معدة بالفعل، غير أن هذا المجلد لم ير النور بسبب موت «ريشنباخ» الفجائى.

وفلسفة «ريشنباخ» فلسفة علمية لأنها أخذت من العلم منهجه التجريبى، فالمنهج العلمى عند «ريشنباخ» يعتمد على التجربة، والمنطق الرمزى والرياضيات مع رفض الرأى القائل إن أساس الرياضيات هو التجربة.

ومن أهم مؤلفاته التى تكشف عن الطابع العلمى للفلسفة هى: نظرية الاحتمال، الأسس الفلسفية لنظرية الكم، الفلسفة الحديثة للعلم، نشأة الفلسفة العلمية، الفلسفة والفيزياء، من كوبرنيقوس إلى أينشتين، نظرية النسبية والمعرفة القبلية، صياغة بديهيات نظرية النسبية وفقًا لمتصل الزمان- مكان، عناصر المنطق الرمزى، الخبرة والتنبؤ، اتجاه الزمن، فلسفة الزمان والمكان.

انظر- حسين على: فلسفة العلم عند هانز ريشنباخ، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص ص21، 22، 23، 26.

(1) هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م، ص249.

(2) Hans Reichenbach: The Nature of Ethics, in, Logical Positivism, edited by, Oswald Hanfling, Basil Blackwell, Oxford, 1981, p.224.

يستطرد «ريشنباخ» قوله فى «طبيعة النظرية الأخلاقية» فيقول «إن التحليل الحديث للمعرفة يجعل المعرفة الأخلاقية a cognitive ethics مستحيلة: فالمعرفة لا تحتوى على أية أجزاء معيارية normative، ولذلك فهى لا تستطيع بنفسها تفسير interpretation النظرية الأخلاقية، ومن هنا فإن المواذاة بين الأخلاق والمعرفة تضر بالأخلاق، لو أمكن المضى فيها، فلو كانت الفضيلة معرفة If Virtue were Knowledge لأدى ذلك إلى فقدان القواعد الأخلاقية طابعها الآمر»[1]. أضف إلى ذلك «أن المعرفة لا تستطيع أن تمدنا بصورة Form النظرية الأخلاقية، لأنها لا تستطيع أن تقدم توجيهات»[2].

ولم يقف فصل العلاقة بين العلم والأخلاق عند ريشنباخ إلى هذا الحد، بل تطور إلى أبعد من ذلك، فقرر «ريشنباخ» «أن البديهيات الأخلاقية ليست حقائق ضرورية، لأنها ليست حقائق من أية نوع. فالحقيقة صفة لقضايا أو أحكام، غير أن التعبيرات اللغوية الأخلاقية ليست قضايا أو أحكام، وإنما هى توجيهات والتوجيه لا يمكن تصنيفه على أساس أنه صواب أو خطأ، فمثل هذه الأوصاف الأخيرة لا تنطبق على التوجيه، لأن الجمل التوجيهية لها طبيعة منطقية تختلف عن طبيعة الجمل الإخبارية أو القضايا»[3].

إن الأوامر التى نستخدمها فى توجيه أشخاص غيرنا، تمثل نوعًا مهمًا من التوجيهات، فلنتأمل مثلاً الأمر «أغلق الباب» هل هذا الأمر صواب أم خطأ؟؟ إن كل ما علينا هو أن ننطق بالسؤال لكى نرى مدى خلوه من المعنى. فالقول: «أغلق الباب» لا ينبئنا بشىء عن الأمر الواقع، كما أنه لا يمثل تحصيل حاصل، أى قضية منطقية، ولن نستطيع أن نقول ماذا يكون الحال لو كان القول: «أغلق الباب» صحيحًا. فالأمر قول لغوى لا ينطبق عليه التقسيم إلى صواب أو خطأ[4].

من هنا يمكن القول أن الرؤية التى قدمها «هانز ريشنباخ» فى مجال فصل العلاقة بين العلم والأخلاق لا تختلف فى منهجها أو تحليلها المعرفى للرؤية التى قدمها «برتراند رسل»

(1) Ibid: p.225.
(2) Ibid: p.225.
(3) هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، مرجع سابق، ص252.
(4) المرجع السابق: ص ص252 - 253.

فالفيلسوفان أرجعا العبارات الأخلاقية إلى أقوال لغوية انفعالية، فكان لابد من فصل العلم عن القيمة.

وهنا يقترب رسل من «ريشنباخ» فى قول الأول «أن العنصر الأخلاقى فى رأيى، والذى يبدو واضحًا وبارزًا فى العديد من الأنساق الفلسفية المشهورة، لهو من أخطر العقبات فى سبيل انتصار المنهج العلمى فى بحث التساؤلات الفلسفية[1]. وبناءً على ما تقدم أكد رسل: «أن الأمر بحاجة إلى نظرة خلقية جديدة يحل فيها الاحترام لخير ما فى الإنسان محل الخضوع لقوى الطبيعة و إنما يكون المنهج العلمى خطرًا حيث يختفى هذا الإحترام. إن العلم الآن وقد أنقذ الإنسان من عبوديته للطبيعة، يستطيع أن يشرع فى إستنقاذه من الجانب الوضيع من نفسه الذى ورثه عن عهد العبودية لقوى الطبيعة. إن الأخطار قائمة، ولكن تفاديها مستطاع، والعقل يقدر أن المستقبل سيضيئه نور الأمل وتشرق عليه شمس الرجاء، على الأقل إلى الحد الذى يخشى معه فى المستقبل ظلمة الخوف ورهبة الشر»[2].

من خلال ما سبق يتضح أن رسل من أنصار الاتجاه الذاتى فى الأخلاق، فالقيم ما هى إلا تعبير عن حالة وجدانية، حيث يرى أنه إذا حكم الإنسان على فعل ما بأنه خير، كانت صفة الخير هذه معبرة عن رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفة موضوعية فى الفعل ذاته[3]. كما أن الأحكام التى تقرر بذاتها قيمة أخلاقية أو جمالية، فإنها جديرة بأن يكون لها بعض الوضوح بالذات، ولكنه ليس وضوحًا كبيرًا[4].

وكذلك كانت درجة الوضوح بالذات مهمة فى نظرية المعرفة، لأنه إذا ما كان للأحكام درجةً ما من الوضوح بالذات دون أن تكون صادقة، لا يلغى هذا بالضرورة كل ارتباط بين الوضوح بالذات والصدق، بل نقول فقط أنه إذا كان هناك صراعٌ فإننا نحتفظ بالحكم الأكثر وضوحًا بالذات، ونرفض الحكم الأقل وضوحًا بالذات[5].

---

(1) Bertrand Russell: Mysticism and Logic and Other Essays, op.cit, p.107.

(2) برتراند رسل: النظرة العلمية، مصدر سابق، ص258.

(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص74.

(4) برتراند رسل: مشاكل الفلسفة، ترجمة: محمد عماد الدين إسماعيل، عطيه محمود هنا، مطبعة دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1947م، ص100.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

إذا كانت درجة الوضوح بالذات تبدو مهمة فى نظرية المعرفة كما أشار رسل، فإن الوضوح بالذات يختلف اختلافا كبيرًا فى فلسفة الأخلاق، فالوضوح بالذات يتحول إلى تعبير «الذاتية»، حيث يقول رسل «إذا قال « أ » يجب عليك أن تفعل هذا، وقال «ب» كلا، بل يجب عليك أن تفعل ذلك، فإنك تعرف رأيهما فقط، وليس لديك وسيلة تعرف بها أيهما على صواب، إذا كان أحدهما على صواب. وليس أمامك مخرج من ذلك سوى أن تقول: « كلما حدث خلاف حول ما يجب أن يُفعل، أكون أنا على صواب، ويكون المختلفون معى على خطأ». ولكن لما كان أولئك الذين يختلفون معك سيسوقون نفس الدعوى، فإن الجدل الأخلاقى سيكون مجرد صدام بين آراء»[1].

وعندما نفحص الأشياء التى نميل إلى وصفها بالقيمة الذاتية، نجد أنها جميعًا أشياء مرغوبًا فيها أو يستمتع بها الناس، ويصعب علينا أن نصدق أن أى شىء يكون ذا قيمة فى عالم خال من الحس، ويوحى هذا بأن «القيمة الذاتية» قد تكون مما يمكن تعريفه على أساس من الرغبة أو المتعة أو منهما معًا[2]. وعليها تكون الأخلاق عند رسل مبنية على الرغبة الذاتية لدى الشخص، على النقيض من نظرية المعرفة التى تقوم على الوضوح والموضوعية.

وفى حين جعل رسل معيار الرغبة الذاتية كأساس للقيمة الأخلاقية، نجد من الفلاسفة المعاصرين من جعل معيار المعقولية Reasonableness كأساس للقيمة الأخلاقية مثل «بيرتون بورتر»، حيث أكد بورتر في كتابه (الحياة الكريمة) أن المعيار المتبع فى فلسفة الأخلاق هو معيار المعقولية - بمعنى أن النظرية الأكثر توافقاً مع العقل يحكم عليها بأنها حقيقية، وزيادة فى التخصيص، نقول أن معيار المعقولية يعنى ضرورة توافر ثلاثة شروط فى النظرية الأخلاقية.

أولاً: توافقها مع نفسها، ومع ما يترتب عليها.

ثانياً: إرتباطها بالوقائع موضع البحث، وعدم تعارضها معها .

ثالثاً: قدرتها على التزويد بأكثر التفسيرات احتمالاً للتجربة الإنسانية[3].

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص98.
(2) المصدر السابق: ص100.
(3) بيرتون بورتر: الحياة الكريمة، الجزء الأول، ترجمة: أحمد حمدى محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 11.

وينهى رسل رأيه فى مشكلة المعرفة الأخلاقية إلى القول بأنه على الرغم من الأخلاق تتضمن بيانات قد تكون صحيحة أو خاطئة، وليست مجرد أمنيات أو نواهى، فإن أساسها أساس من الشعور والإحساس، الشعور بالتحبيذ والإحساس بالاستمتاع أو الاكتفاء، الأول لأنه متضمن فى تعريف «الصواب» Right و«الخطأ» Wrong، والثانى لأنه يتضمن فى تعريف «القيمة الذاتية» Intrinsic Value، إن ما نعتمد عليه فى إقناع الناس بقبول نظريتنا الأخلاقية ليس الوقائع الحسية The Facts of Perception بل الانفعالات Emotionsوالإحساسات التى انبثقت منها مفاهيم «الصواب» و«الخطأ» و«الخير»Good و«السيء»[1].

وعليها عُد رسل من أنصار الاتجاه الذاتى فى الأخلاق، فالقيم ما هى إلا تعبير عن حالة وجدانية، حيث يرى أنه إذا حكم الإنسان على فعل ما بأنه «خير» كانت صفة «الخير» هذه معبرة عن رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفة موضوعية فى الفعل ذاته[2].

ثالثا: الرغبة وذاتية القيم

بادىء ذى بدء يقرر رسل هنا أن نظريته التى يتولى الدفاع عنها «تمثل شكلاً من أشكال المذهب الذى يعرف بذاتية القيم»[3]. وذاتية القيم تشير دائمًا إلى الرغبة desire، والرغبة هى ما قام به الفرد من أفعال، أى أنها عبارة عن فعل ناتج من وراء الإرادة أو الإحتياج أو القصد، لذلك كان للرغبة معنى تجريبى يتعلق بخبرة الشخص الفردية، ومعنى آخر سلوكى يتعلق بالفرد بوصفه عضوًا فى مجتمعه[4].

(1) آثرت أن أرجع فى هذا الموضع بالذات إلى المصدرين «الإنجليزى» و«الترجمة العربية» وذلك لأن الترجمة العربية ترجمت المفاهيم الحدسية بمعانى عامة وليست بمعانى أخلاقية، مثل كلمة Good التى ترجمت بمعنى «حسن» وهى تعنى فى البحث مفهوم «الخير»، وكلمة Emotions التى ترجمت بمعنى «المشاعر» وهى تعنى فى البحث بأكمله «الإنفعالات».

Bertrand Russell: Human Society In Ethics and Politics, George Allen and Unwin Ltd, London, 1963, p.118.

وانظر الترجمة العربية:

برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص104.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص74.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص238.

(4) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, p.68.

ويتلخص هذا المذهب فى القول «أنه إذا اختلف شخصان حول القيم، فإن الخلاف بينهما لا يتعلق بأى نوع من أنواع الحقيقة، ولكنه اختلاف فى الذوق taste، والأساس الذى أبنى عليه اعتناقى فى هذا الرأى هو الاستحالة المطلقة فى إيجاد أية محاجاة من شأنها أن هذا الرأى أو ذاك له قيمة نابعة من داخله. وإذا حدث وأن أجمعنا على رأى واحد، فيمكننا القول بأننا ندرك القيم عن طريق الحدس، ونحن إذن لا نستطيع أن نثبت لشخص مصاب بعمى الألوان أن الحشائش خضراء وليست حمراء. ولكن هناك طرقًا مختلفة نثبت بها له أنه يفتقر إلى القدرة على التمييز التى تتوافر لدى معظم الناس، بينما لا توجد مثل هذه الطرق فى حالة القيم عما هو الحال فى حالة الألوان. وحيث أنه لا يمكننا أن نتخيل طريقة نحسم بها الخلاف حول القيم فإنه يتبع ذلك نتيجة تفرض نفسها علينا، فحواها أن الخلاف خلاف فى الذوق taste وليس خلافًا متعلقًا بالحقيقة الموضوعية»[1].

من خلال النص السابق للفيلسوف محور الدراسة، يتبن لنا أنه يرفض النظرية الحدسية فى مجال القيم، وذلك لكونها عاجزة عن تقديم إثباتات أو براهين لمن أصيب بعمى الألوان فى توضيح ألوان الحشائش وغيرها من الأمثلة التى تثبت عجز النظرية الحدسية التى كان يعتنقها رسل مسبقًا، وبالتالى يعرض رسل لنظريته الذاتيةSubjectivity المبنية على الرغبة desire، فذاتية القيم هنا أن الاختلاف بين الناس فى مشكلة القيم لا يكون اختلافا حول أنواع الصدق أو الموضوعية العلمية، وإنما هو اختلاف ذوقي.

يحاول «بول إدوارد» تحليل ما وصلت إليه فلسفة رسل فى منعطفها الأخير (كما يطلق عليها إدوارد) فيقرر أن رسل تبنى فى هذا الموقف الأخير لنظريته الأخلاقية ذلك الموقف المعارض لنظريته الحدسية التى قدمها عن «الخير» و«السيء»، بل قام رسل بدحضها، فلم تعد تمثل أفكارها كيفيات qualities تختص بموضوعات الأشياء، أما نظريته الأخيرة فهى تتعارض أيضًا مع رؤيته المقدمة عن المربع أو الحلوى «this is square or this is sweet». فإذا اختلف شخصان فى الحكم على القيم، فإن اختلافهما لا يعنى أى نوع من عدم التوافق بالنسبة إلى نوعية الصدق truth ولكن الاختلاف هنا يكون فى الذوق، وبالتالى لا توجد أى وقائع أخلاقية there are no facts of ethics[2].

(1) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص ص239-238..

(2) Paul Edwards: Russell, Bertrand Arthur William, Op.cit, p.252.

ولمزيد من التوضيح والتأكيد بخصوص الرغبة القيمية وعلاقتها بالذاتية الأخلاقية، فإن رسل يحاول استكشاف المعنى الذاتى للرغبة من خلال مقارنة القيمة بالطبيعة، فيرى فيلسوفنا أن هناك عالمين يعيش فيهما الإنسان يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافا بعيدًا: الأول عالم الطبيعة، والثانى عالم القيمة، فيعيش الإنسان فى عالم الطبيعة جزءًا منها، فأفكاره العقلية وحركاته البدنية خاضعة لنفس القوانين التى تسير بموجبها الذرات والنجوم[1]. وبالتالى تكون فلسفة الطبيعة شيئًا وفلسفة القيمة the philosophy of value شيئًا آخر مختلف تمامًا، فإذا ما كنا بصدد ما نعتقده خيرا good أو ما الذى نحبه like فإن هذه الاعتقادات ليس لها صلة بالمرة بتساؤلات فلسفة الطبيعة[2].

وليس ذلك بغريب كما عبر عنها رسل، وذلك لكون الموقف يختلف فى فلسفة القيمة عما هو عليه فى فلسفة الطبيعة، فالطبيعة تعد مجرد جزءٍ مما نتخيله imagine وكل شىء سواءً كان متخيلاً أم حقيقيًا، يمكن أن يكون هنا موضوعٌ لتقديرنا، ولا يوجد «معيار برانى» outside standard يمكنه أن يبين لنا أن تقييمنا valuation خاطئًا، فنحن أنفسنا أصحاب الكلمة النهائية فى القيمة، ففى عالم القيمة تكون الطبيعة كلها لا تزيد على أن تكون مجرد جزءٍ من مملكة فسيحة الأرجاء، ومن ثم فنحن فى هذا العالم أعظم من الطبيعة[3].

وفى عالم القيم[*] the world of value تكون الطبيعة ذاتها محايدة neutral فلا هى خيرة ولا هى سيئة، ولا تستحق الإعجاب admiration أو اللوم censure فنحن فقط الذين نخلق

(1) Bertrand Russell: What I Belive, in, The Basic Writing of Bertrand Russell, edited by, Robert E. Egner and Laster E. Denonn, with an Introduction by, John G. Slater, Routledge Classics, London and New York, 2009, p.344.

(2) Ibid: p.348.

(3) Ibid: p.348.

(*) يشير الكاتب إلى حقيقة مهمة هنا، وهى أن برتراند رسل استخدم مصطلحين مختلفين فى معنى كلمة العالم، فتارة عبر عن العالم بالكلمة الإنجليزية world، وتارة أخرى فى نفس الموضع استخدم كلمة أخرى كان قد استخدمها من قبل الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» فى تعبيره عن عوالم الوجود الأربعة عنده ألا وهى كلمة Realm وهى تعنى العالم أيضًا، ولكن لم يتبين للباحث بعد لماذا غير رسل فى تعبيره للكلمات، مع العلم أن عوالم الوجود عند رسل ثلاثة كما تبين للباحث من خلال مؤلفه «عقيدتى» , What I Belive وهما عالم الطبيعة وعالم القيمة وعالم المعاني، وذلك على النقيض من سانتيانا الذى جاءت عوالمه أربعة مستخدمًا كلمة واحدة كما أشرت.

القيمة، ورغباتنا هى التى تضفى القيمة على الشىء، فنحن فى هذا العالم Realm ملوكًا، وتضيع عروشنا لو انحنينا للطبيعة، فنحن فقط أصحاب الحق فى تحديد الحياة الكريمة(*) the good life وليس الطبيعة، ولا حتى الطبيعة منظورًا إليها كأنها الله(2).

من هنا يمكن القول بناءً على ما تقدم من الفيلسوف محل الدراسة، أن نظرية القيمة تختلف اختلافا جوهريًا عن فلسفة الطبيعة، التى يتخذها العلم محورًا مركزيًا فى دراساته الموضوعية، وبالتالى تكون فلسفة الأخلاق العاطفية هنا مغايرة تمامًا للعلم، حيث أنها تستخدم منطق الرغبة الذاتية، فالمحك الأساسى فى التمييز بين الأشياء هى كونها موضوعًا للرغبة، فليس للشىء قيمة فى ذاته، ولكنه قيمًا لأننا نرغب فيه.

يؤكد رسل أن الرغبة هى موضوع النظرية الأخلاقية، حيث يرى أن فكرة الخير والشر بأسرها يربطها شىء من العلاقة برغبات البشر، وأن أى شيء نجتمع على الرغبة فيه شيء خير، فى حين أننا نعتبر أى شيء نخشاه جميعًا شيئًا سيئًا، ولو أننا اتفقنا جميعًا فى رغباتنا لما كانت هناك مشكلة، ولكن رغباتنا لسوء الحظ متعارضة. فإذا قلت: «أن ما أريده فقط هو الخير» سوف يرد على جارى بقوله «لا بل ما أريده أنا هو فقط الخير». ومن ثم فإن علم الأخلاق كما يراه رسل ما هو إلا محاولة هنا للهروب من الذاتية، ولكنها محاولة غير ناجحة(3).

ولذلك يرى رسل أن علم الأخلاق على علاقة وطيدة بعلم السياسة، فعلم الأخلاق عبارة عن محاولة لجعل الرغبات الجماعية لدى جماعة من الناس تؤثر فى الأفراد أو أنها العكس محاولة من جانب فرد لكى يجعل رغباته تسود المجتمع الذى ينتمى إليه، وهنا يرى رسل أن الحالة الثانية قد تكون ممكنة فى حالة واحدة فقط، وهى إذا كانت رغبات الفرد غير متعارضة مع رغبات الجماعة، فمن العسير على اللص أن يقنع الناس بأنه يعمل لصالحهم(4).

بينما عندما نرغب فى أشياء نستطيع جميعًا الاشتراك فى الاستمتاع بها، فإنه يبدو من المعقول

(*) In this Realm we are kings, and we debase our kingship if we bow down to nature. It is for us to determine the Good Life, not for nature- not even for nature personified as God.

(2) Ibid: p.348.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص231.

(4) المصدر السابق: ص232.

أن نأمـل فى الحصول على موافقة الآخرين على ما نرغب، وهكذا يبدو للفيلسـوف الذى يقدر قيم الحق والخير والجمال أنه لا يعبر فقط عن رغباته الشـخصية، ولكنه يرسـم طريق السعادة لـكل البشر، وهو هنـا على خلاف الحرامى - قادرٌ على الاعتقاد بـأن رغباته تهدف إلى شيء له قيمتـه العامة، إن علم الأخـلاق هنا ما هو إلا محاولة لإضفاء الأهمية العامة وليس مجرد الأهمية الشخصية على جانب معين من رغباتنا[1].

ولذلـك كان الحكم الخلقى ليس تقريرًا عن واقعة أو وصفًـا لحقيقة، إنما هو انفعال معبر عن رغبة ذاتية أو حالة نفسية أشبه ما تكون بانفعال الغاضب أو النشوان.

وتحليل ذلك فى فلسفة رسل الانفعالية - أن الإنسان إذا ما حكم على فعل بأنه خير، كانت صفـة الخير هذه تجسـد رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفـة موضوعية فى الفعل ذاته، وليست القيم سوى تعبير عن حالة وجدانية عند المتحدث، وليس هو بالأمر الذى يصف شيئًا فى عالم الواقع، فحين يقول القائل: وددت لو لم يكن بين الناس كراهية، وأن يسودهم الحب، فإذا فرضنا أن شخصين اختلفا فى الحكم على فعل بأنه خير فليس هناك فيصل موضوعى يرجع إليه فى قبول أحد الرأيين ورفض الآخر، ولذلك كان من المستحيل أن يتجادل اثنان فيما اختلفا فيه من أحكام القيم[2].

أضف إلى ذلك أن هناك العديد من المفاهيم المتعلقة بمفهوم الرغبة هذه، مثل مفهوم الاهتـمام Interest أو الحاجـة want أو الدافع Impluse وكذلك الغريزة Instinct وكل هـذه المفاهيم الفردية المختلفـة تصب فى معنى واحد هو الدافـع Motive ولكن هناك اختـلاف فى المعـانى، فالغريزة مثلاً صفة بيولوجية مشـتركة بين الـذوات البشرية، أما الرغبـة أو إرادة شيء مـا، فهى شيء فردى يختلف من شـخص لآخـر، فى حين أن هناك علاقة وطيدة بين كل من الرغبة desire والإرادة، فلا يمكن القول بأن شـخصًا ما يريد شـيئًا ما ولا يرغب فيـه، وهناك أيضًا العلاقـة القائمة بين الحب والاهتـمام، فأنا أرغب فى شيء مـا، ربمـا لا يكون معى، ولكنى أتمنى دائمًـا أن أمتلكه[3]. وهـذا يعنى أن الرغبة

(1) المصدر السابق: ص233.

(2) مصطفى غالب: برتراند رسل، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1991م، ص ص128-127.

(3) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, pp.64,65.

الانفعاليـة تعنى التمنى، كما تعنى الاهتمام، حيـث أن كل من الرغبة والاهتمام والتمنى تشير فى حقيقتها إلى فكرة الدافع.

كما يشـترك مفهوم الرغبة كثيرًا مع فكرة «القصدية» Intention أو «الإختيار» choice وذلك لأننى عندما أقوم بالتساؤل الفلسفى عن هذه التصورات الأخلاقية، فإنى اسأل عن حدث أو فعل action قام به الفرد، أو عن الدافع وراء قيامه بهذا الفعل[1].

من خلال ما سـبق يمكن القول أن القيم الأخلاقية تنشـأ عن ذات قائلها بكل ما تضم من ميـول ورغبات ووجدانات وأهـواء، هى أحكام ذاتية تنبثق من الذات الحاسـة بكل ما تضم من أحاسـيس ومشـاعر ووجدانات، وهذا هو العنصر الذاتى الذى يفتقر فى وجوده إلى ذواتنا، وهذه هى النزعة الذاتية subjectivism عامة، وفى دراسة القيم بوجه خاص[2]. وعندما كانت القيم الأخلاقية منشـأها ذات المتكلم، فإن هنـاك اتفاقًا على أن الدافع motive هو الذى يحرك الإرادة will حيـث يتم البحث عنه من خلال إحدى الشروط conditions التى تم إيجادها من خلال التحليل الذى يشير إلى أفعال الإرادة، وهذه الشروط موجودة على صورتين هما: الشعور feeling والرغبة desire ففى أى من هاتين الصورتين نبحث عن الدافع[3].

وهنا تتفق آراء رسل مع آراء حركة الوضعية المنطقية المعاصرة، فإذا كانت آراؤه قد جاءت من قبل متفقة مع كل من «آيـر» و«ريشـنباخ» فى كون الانفعال مميزًا للأخلاق عن العلم، فإن فيلسوفنا هنا آراه يتفق مع ما ذهب إليه « كارناب» R. Carnap (1891 - 1970)، وهو أحد كبار فلاسفة الوضعية المنطقية، حيث رأى الأخير «أن الحكم الأخلاقى المعيارى مجرد تعبير عن رغبة معينة، تعبير له الصورة النحوية الخاصة بالعبارة التقريرية. وقد انخدع معظم الفلاسـفة بهذه الصورة فظنوا أن العبارة القيمية قضية تقريرية فى واقعها، ولابد بالتالى من أن تكون صادقة أو كاذبـة. ومن هنا قدموا براهين عـلى قضاياهم القيمية الخاصة، وحاولوا نقض قضايا خصومهم، غير أن العبارة القيمية ليست فى الواقع أكثر من أمر وضع فى صيغة نحوية مضللة»[4].

---

(1) Ibid: p.68.

(2) توفيق الطويل: قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، مرجع سابق، ص22.

(3) J. H. Muirhead: The Elements of Ethics, John Murray, London, 1892, p.56.

(4) سحبان محمود الحمدان خليفات: لغة الأخلاق- دراسة تحليلية لمنطق اللغة العربية فى مجال الأخلاق، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1977م، ص575.

وقد يكون لأمثال هذه العبارات فيما يراه «كارناب»- تأثيرات على أفعال الأفراد وسلوكياتهم، كما أنها قد تتوافق مع رغباتهم أو تتعارض معها، إلا أنها على وجه اليقين ليست صادقة أو كاذبة، إنها لا تثبت شيئًا، ولا يمكن إثباتها أو نفيها أيضًا. فعبارة أن «القتل شر» تساوى «لا تقتل! « إلا أن العبارة الأخيرة تعد من ناحية نحو ية شكلية أقل خداعٍ، إنه انفعالى من حيث أنه يسعى إلى تحريك أو بحث فردًا ما على الحركة[1].

وهنا يمكن القول أن مجمل آراء الوضعية المنطقية فى مجال الأخلاق قد جاءت نتيجةً لموقفهم فى دحض الميتافيزيقا، حيث يرون أن العبارات الميتافيزيقية وكذلك المعيار ية «عبارات» تدعى التعبير عن قضية حقيقية، غير أنها فى واقعها لا تعبر عن فروض تجريبية أو تحصيل حاصل. وعندما كانت قضايا تحصيل الحاصل، والفروض التجريبية تشكلان معًا فئة القضايا ذات المعنى، فمن الواضح أن جميع العبارات الميتافيزيقية لا معنى لها، ولذلك فإن الفيلسوف الأخلاقى قد ضلله نحو اللغة[2].

فالقضايا التى تحمل معنى عند «كارناب» يقسمها فى ثلاث فئات:

أ- قضايا صادقة بالنسبة لصورتها وحدها (أى تحصيل حاصل وهى المنطق والر ياضة وهى فى رأيه لا تقول شيئًا عن الواقع لأنها قضايا تحليلية أو تكرارية).

ب- قضايا تنطوى على تناقض منطقى وهذه قضايا كاذبة بالنسبة لصورتها.

جـ- قضايا تجريبية وقد تكون صادقة أو كاذبة. أما القضايا التى لا تنتمى إلى أى من هذه الفئات الثلاث فى نظر الوضعيين المناطقة، فهى خلو من المعنى، وقضايا الميتافيزيقا والأخلاق من هذا القبيل[3].

من خلال ما سبق يمكن القول أن دعوى الوضعية المنطقية فى الأخلاق جاءت متفقة مع الرؤية المقدمة من برتراند رسل، حيث أنكر الاثنان وجود قضايا أخلاقية أصيلة، فالعبارات

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) سحبان محمود خليفات: لغة الأخلاق، مرجع سابق، ص576.

(3) محمود رجب: الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1987م، ص238.

الأخلاقية خالية من كل معنى معرفى، وهى بالتالى تختلف اختلافا بعيدًا عن النظريات العلمية أو النظريات الواقعية ذات الحقائق الموضوعية، التى يمكن وصفها بالصدق أو الكذب.

والحق أن رسل هنا لا يدعى لتفسه الأسبقية فى القول بالنظرية الانفعالية فى مجال الدراسات القيميـة، فللوضعية المنطقية باعٌ كبيرٌ فى القول بالعاطفة الانفعالية فى نظرية القيمة. فإن كان فيلسـوفنا بالفعل قد سـبق «آيـر» بعام واحد، عندمـا كتب «الدين والعلـم» 1935م، وكتب الأخير «اللغة والصدق والمنطق»1936م، إلا أن رسل يعترف بـ«أن الفيلسوف قد يضل بالفعل، ويهبط إلى مسـتوى سمسـار البورصة، وذلك عندما يدعى أنه المكتشف الأول لاكتشاف ما، فهذه مجرد انتكاسـة تصيب الفيلسوف، فالفيلسـوف الحق هنا هو ذلك الذى يستخدم قدراته الفلسفية الخالصة فى الاستمتاع بتأمل الحقيقة، وهو فى تأمله هذا لا يتدخل فى شئون الآخرين الذين يسعون مثله فى تأمل الحقيقة»[1].

يحاول رسل صياغة الأدلة أو الأمثلة التى تبرهن على وجود الرغبة الذاتية، وذلك من خلال مقارنتـه بين الرغبة الجزئيـة والرغبة الكلية، أو بين ما هو خاص ومـا هو عام، حيث يرى أن هذا التلاحم العجيب بين الخاص والعام فى مجال الدراسات القيمية قد أحدث كثيراً من الخلط والاضطراب فى النظرية الأخلاقية[2].

وهنـا تكون الأمثلة التى يقدمها رسـل من قبيل عندما يقول إنسـان: «أن هذا الشيء يعد خـيرًا فى ذاته» فإنه يسـتخدم هنا أسـلوبًا تقريريًا مثل قوله «هذا مربـع» أو «هذه حلوى»، ولكنى أعتقد أن هذا القول يعد خطأً، فمن الأحرى أن يقول: «أتمنى أن يرغب كل إنسـان فيما أرغـب»، أو «ليـت كل الناس يرغبون فى هذا الـشيء»، فإذا فسرنا ذلك القـول على أنه حالة أو تقريـر واقـع، فإن هذا القول يكون مجرد تأكيد لأمنيته الشـخصية أو رغبته الذاتية. وعلى النقيـض من ذلـك إذا فسرنا القول السـابق بطريقة كلية (عامة)، فإن القـول فى هذه الحالة لا يقرر شيئًا بل يصبح مجرد تعبير عن الرغبة فى شيء[3]. فالتمنى هنا مسألة شخصية ولكن الرغبة التى يرنو إليها هذا التمنى تتسم بالعمومية والشمول[4].

(1) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص233.
(2) المصدر السابق: ص236.
(3) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(4) المصدر السابق: نفس الصفحة.

ويوضح رسل فكرته فيقارن بين العبارتين التاليتين: إذا قلت أن «كل الصينيين بوذيون» فإنه يمكن دحض قولى عن طريق الإشارة إلى مواطن صينى يدين بالمسيحية أو الإسلام، لكنى إذا قلت «أعتقد أن كل الصينيين بوذيون» فإنه لا يمكن دحض ما أقول عن طريق الاستناد إلى دليل مستمد من الصين، ولكن يمكن دحض ما أقول فقط عن طريق إبراز الدليل على أنى لست مؤمنًا بما أقول، أى أنه لا يعتقد أو لا يؤمن بما أقول، لأن ما أؤكده ليس سوى تعبير عن حالتى الذهنية[1].

فإذا قال فيلسوف - كما يقول رسل- «أن الجمالَ خيرٌ» فإن هذه العبارة قد يكون لها معنيان، فهى تعنى «ياليت كل إنسان يحب الجمال» التى تناظر «كل الصينيين بوذيون» أو قد تعنى «أتمنى كل إنسان يحب ما هو جميل» والتى تناظر «أعتقد أن كل الصينيين بوذيون». من هنا فإن العبارة الأولى لا تؤكد شيئًا عند رسل، لأنها تعبر عن رغبة ذاتية، وعندما كانت هذه العبارة لا تؤكد شيئًا فإنه يستحيل من الناحية المنطقية الدفاع عنها أو الهجوم عليها، أو أن يقوم الدليل على صحتها أو خطأها، وذلك لكونها تعبر فقط عن رغبة desire فى شىء ما، ولا تقرر شيئًا ولا تؤكده، من هنا كانت هذه العبارة تنتمى إلى مجال النظرية الأخلاقية، بينما العبارة الثانية لا تنمتى إلى الدراسات الأخلاقية، وإنما تنتمى إلى مجال علم النفس أو سيرة الحياة[2].

وخلاصة القول يرى رسل أن مجال النظرية الانفعالية فى الأخلاق لا يحتوى على بيان حالة سواءً كان صادقًا أم كاذبًا، ولكنه يتكون من رغبات من نوع عام معين، هو ذلك النوع من البيان الذى يهتم برغبات البشر جميعًا، ويهتم بالآلهة والملائكة والشياطين إن كان لها وجود. وأنه بإمكان العلم أن يقوم بمناقشة أسباب الرغبات وطرق تحقيقها، ولكن لا يمكنه أن يحتوى على أية عبارات أخلاقية حقيقية وخالصة، لأنه يهتم باستقصاء ما هو حقيقى وما هو زائف[3]. فالرغبة هى ما تميز الأخلاق عن العلم فى فلسفة رسل، وليس هناك أية صورة من صور المعرفة فى مجال النظرية الأخلاقية[4].

(1) المصدر السابق: ص237.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق: ص238.
(4) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 679.

ويصيغ رسل مجمل قوله فى طريقة تبدو أكثر جمالية وشعرية فى قوله «وبخصوص هذا الموضوع ليس هناك حجة argument ممكنة، ومن ثم فأنا لا أستطيع إثبات أن وجهة نظرى عن الحياة الكريمة The Good Life تعد صوابًا، فأنا هنا أستطيع فقط تقديم رؤيتى، وأتمنى أن تكون رؤية ممكنة حتى تنال رضاء الجميع، وهى: أن الحياة الكريمة هى تلك الحياة التى تستلهم الحب وتستهدى بالمعرفة[1].

«The Good Life is one inspired by Love and guided by Knowledge»

فالمعرفة والحب كلاهما قابل للانصهار فى الحياة، ومن ثم لابد من وجودهما معًا لكى تكون هناك حياة كريمة، فلا وجود للحب دون المعرفة، ولا وجود للمعرفة بدون الحب فى تحقيق الحياة الكريمة على ظهر البسيطة[2].

(1) Bertrand Russell: What I Belive, OP. cit, p.349.

(2) Ibid: p.349.

تعقيب عام

من خلال السطور السابقة فى عرض النظرية العاطفية للفيلسوف محل الدراسة، يتضح أن رسل يعد رائدًا من رواد النظرية الانفعالية على الإطلاق، وقد تبلور ذلك فى ثنايا هذا الفصل، والأدلة التى تؤكد هذا القول هى النظر إلى التاريخ المدون على كتاباته، حقًا أن رسل كان فيلسوفًا هوائيًا فى فلسفته، ولكن هذا القول لا يعد عيبًا فى فكره، أو يمنعه من أخذ دور الريادة فى مجال البحث الأخلاقى، بل يُكْسِبُه قوةً فكريةً من خلال التغيير والتعديل فى مواقفه، فكان كتابه «الدين والعلم» هو بداية فاتحة للنظرية الانفعالية على الاطلاق، والشاهد الذى يؤكد هذا هو أن الكتاب صدر عام 1935م، قبيل «آير» وغيره من الوضعيين المناطقة الذين كان لهم الدور البارز فى تطوير النظرية، حتى ارتبط اسمها بهذه الحركة، بل كان رسل سابقًا «ستيفنسون» الذى رأى «أن الانفعال هو الشعور، والشعور حالة وجدانية تتكشف طبيعتها بالاستبطان»[1].

ولكن القول الذى ينكر حق الفيلسوف فى هذه النظرية، لا يعدو أن يكون سوى مجرد وجهة من النظر، فرؤية «ميشيل بوترو» التى تقول «أن برتراند رسل يعد من أكثر الشخصيات أهمية فى فلسفة القرن العشرين، حتى فاقت أهميته كل من «آير» و«ستيفنسون»، ولكن لم يرتبط اسمه فى الواقع بشكل كبير بالنظرية الانفعالية، ولا بالفلسفة الأخلاقية على الإطلاق، لذلك لا يحق القول أن رسل كان له سبق التبكير فى النظرية الانفعالية قبل كل من «آير» و«ستيفنسون»[2]. فى حين أنه يقول أيضًا «وبعبارة أخرى يمكن اعتبار رسل عالم أخلاق نشط An Active Moralist لأنه لم يكن فيلسوفًا أخلاقيًا، حيث يفترض دائمًا أن يقوم الآخرون بمشاركته فى آرائه الأخلاقية»[3]. بل أن ما ذكرته الموسوعة الفلسفية «ستانفورد» يعد إجحادًا لفكر رسل الأخلاقى، حيث رأت «أن رسل كان ذا شهرة واسعة بوصفه رجلاً أخلاقيًا Moralist وكذلك فيلسوفًا، إلا أنه لم يكن لديه هذه الشهرة العظيمة بوصفه فيلسوفًا

(1) سحبان محمود الحمدان خليفات: لغة الأخلاق، مرجع سابق، ص589.

(2) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, op.cit, p.1.

(3) Ibid: p.2.

أخلاقيًا Moral Philosopher بالمعنى التقنى لهذا المصطلح، فى حين أنه نال شهرة عظيمة بوصفه المنطقى والميتافيزيقى، وفيلسوف الرياضيات»[1].

وهذا يمثل رؤيةً لكاتب فقط أو ناقد لفلسفة ما، وبالتالى لا تعدو أن تكون هذه الرؤية موضع صدق، لأن فيلسوفنا ذو عبقريةٍ أخلاقيةٍ متميزة، وأسلوبٍ فكرى فذ، وذكاءٍ خارقٍ للعادة، بل وأيضًا صاحب أسلوب فلسفى لامع وبراق، والدليل على ذلك أنه لم يكن هناك عام يمضى، إلا ولرسل بصماته البارزة لهذا العام من خلال كتاباته، التى مست بالفعل واقع الحياة الفلسفية المعيشة، حتى أصبحت فلسفته الأخلاقية، بمثابة الفلسفة التطبيقية التى يمكن لأى إنسان أن يحتويها فى عقله.

ومن جهة أخرى، تعد نظرية رسل الانفعالية جديرةً بالدراسة والتحليل، لأنها جاءت بنفس المنهج التحليلى التصورى للميتا أخلاق، ولكن اختلفت فى ردها للحكم الأخلاقى إلى الرغبة، والذاتية المتغيرة، بل كانت نظرية وجدانية من الطراز الأول كما عبرت عن ذلك أيضًا الوضعية المنطقية، ولكن الحكم على قبول النظرية الأخلاقية هذه لم يكن حكمًا قائمًا على حقائق الإدراك، ولكنه حكمٌ يعتمد بطريقة أو بأخرى على العواطف Emotions والمشاعر Feeling التى تسمو لمفاهيم الصواب والخطأ، والخير والسيء[2]. ولكن لم تنجح النظرية الانفعالية فى أن تصل إلى صواب أو خطأ الأحكام الخلقية، لأنها كانت مجرد رغبة أو عاطفة منفعلة بالحب حينًا أو بالكراهية فى أوقات الغضب.

وأضف إلى ذلك، أننا لو أردنا تقييم نظرية الرغبة أو الاهتمام الأخلاقى، فإننا لابد أن نذكر عيوب هذه النظرية كما ذكرنا ميزاتها الانفعالية، أولها أن نظرية الرغبة لا تحدد الكيفية الأصيلة لوجود القيمة، بل أغفلت الدور الرئيسى لحكم القيمة، كما أنها لا تعطى وصفًا دقيقًا لتصور القيمة فى كونه معبرًا عن علاقة أخلاقية[3].

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, At:
http://plato.stanford.edu/entries/stevenson/ (21/4/2012)

(2) John L. Mckenney: Concerning Russell`s Analysis of Value Judgments, op. cit, p.382.

(3) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, p.73.